غـمـامـة

عبد الباقي يوسف

روايـة

غمامة

عبد الباقي يوسف

الناشر: نفرتيتي للنشر

الطبعة الأولى ٢٠٢٣
رقم الإيداع: 2022/27564
الترقيم الدولي: 978-977-6865-28-0

المستشار الفني: عبدالله أحمد

الإشراف العام: السيد عبد الفتاح

الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر
وجميع الحقوق محفوظة

دار نفرتيتي للنشر والدراسات والترجمة
١٨ شارع ضريح سعد - القاهرة
٢٧٩٠١١٠٤ ٠١١٤٨٨٥٢٦٦٨
nefertitipst@gmail.com

غـمـامـة

عبد الباقي يوسف

كانَت سَكينة في ربيعها الخامس والعشرين عندما تزوَّجَت من سلوان الذي كان يكبرها بخمس سنوات، وكان يعمل مستخدماً في إحدى المدارس الابتدائيَّة، ويعيش مع أبيه بعد وفاة أمّه إثر حادثِ سير حيث دَهَسَتها سيارة وهي تعبر الطّريق لتذهب إلى سوق الخضار.

فجأةً رأى البَيت دون أم، الأم التي لزمته يوماً بيوم منذ أن فتح عينَيه على الحياة. كانَت الصدمة مؤلِمة بالنِسبة إليه كما كانَت مؤلِمة بالنسبة لأبيه، حيث لبثا يعيشان في البيت وحدهما. وبعد سنة من الحادث، أراد أن يتزوَّج، واقترَح الفكرة على أبيه الذي شجَّعه عليها.

عند ذاك صار يتذكَّر فتيات الجيران، الأقرباء، وخطر له بأن يذهب إلى خالته نواهل ويقترح عليها الفكرة، لعلَّها تُساعِده في اختيار فتاةٍ مناسبةٍ، فهي في مقام أمّه.

وذات يوم وبعد انتهاء عمله من المدرسة التي يعمل فيها مُستخدِماً، اتَّجه إلى بَيتِ خالتِهِ، فاستقبلَته وقبَّلَته. وبعد جلوسه بنحو ربع ساعة وتناول كأسٍ من الشاي، قال: أريد أن أتزوَّج يا خالتي، وجئتكِ اليوم حتى تساعديني في اختيار ابنة حلالٍ تُناسبني.

قالَت: صحيح يا بني، لا بدَّ لك أن تتزوَّج، وإن شاء الله يكون الزواج فاتِحة خير عليك.

وبعد صمتٍ ليس بالطويل، قالَت: توجد صبية جارة لنا، أظنَّها تكون مناسبة لك يا سلوان. ثم أردفَت تقول: أمّها خيّاطة في الحارة، أحياناً أخيِّط

عندها بعض مستلزماتي، امرأة طيِّبة وخَدومة، والبنت مؤدَّبة وخَلوقة، وأبوها يشتغل صيَّاد سماك، عنده شِباك يصطاد بها السمك من النهر ويبيعها لبائِعي السمك في السوق.

انشرَح صدر سلون للحديث، وابتسم وهو يقول: والبنت حلوة يا خالَتي؟

قالَت: حلوة، حلوة..

-: ما اسمها يا خالتي؟

-: يا روح خالتك، اسمها على لساني، لكن ما عم أتذكَّر.

ثم سحبت سيجارةً من علبة تبغها، أشعَلَتها، وأردَفَت وهي تنفث الدَخان في الأجواء: بكرة أروح لبيت جارتي وأفاتحها بالموضوع، أنتَ تعال بعد بكرة وإن شاء الله خير حبيبي.

نهض سلوان مستأذِناً، وعند ذاك طلبت منه أن يبقى للغداء وبعد قليل سوف يعود زوجُها أيضاً من العمل. لكنَّه أصرَّ على الذهاب، قائِلاً بأن أباه ينتظره، وإذا تأخَّر أكثر سينشغل عليه.

اغرَورَقَت عيناها بالدموع، وهي تودّعه وقالت: أنتَ رائِحة مِن أمّك يا بُنَي، رحمكِ الله يا أختي وجَعَلَ قبرَكِ روضةً من رياض الجنة.

خَرَجَ سلوان متَّجِهاً إلى البيت وهو يتخيَّل نفسه متزوّجاً، وأنَّ زوجته تملأ البيت عليه وعلى أبيه، ثم تنجب له الأطفال، ويُكوّنان معاً أسرة صغيرة وجميلة.

وخطرَ له أن يحتفل احتفالاً صغيراً بهذه المُناسبة، فذهب إلى المطعم، واشترى نصف دجاجة مشوية وعبوَتَي بيبسي، وعاد إلى البَيت.

بدخولـه، سـلَّم على أبيه وراح يضـع الطعام على الأرض، فقـال له أبوه: خـير يا بني، أولاً وجهك فيـه إشراقة، وثانياً أكل جاهز. فـرّح قلبي معكَ يا سلون، أنتَ لستَ كعادتك اليوم، وتأخّرتَ عن موعدك أيضاً؟

لم يشأ أن يُخبِره بالأمر، لأنَّه لا يزال في بدايته و قد لا يتم، فقال: لا شيء يا أبي، اليوم أردتُ أن نغيِّر روتين أكل البيت.

صمتَ أبوه وشرع يأكل دون أن يُصدّق عدم حصول شيءٍ مع ابنه اليوم.

في المسـاء، اسـتلقى سـلون على فِراشِـه أمضى الليلة سـاهِراً وهو يستمع الأغاني العاطفية، ويرسم صورةً لها في مخيّلته، يتحدَّث معها، وتتحدَّث معه، يضمّهـا إلى صدره، وتضمّه إلى صَدرِهـا، يُدندنان بأغنياتٍ معاً، يأكلان معاً، يمشيان في السّوق معاً.

يبـدو كما لـو أنَّـه يكتشـف لأوَّل مرَّةٍ صقيـع الحيـاة العزوبيـة وجفافها، ويتخيَّل كم أنّ الحياة الزوجية تكون دافئة وخصبة.

همهـم في سرِّه: الرجـل العازب يا سـلوان، يكون في عزلةٍ عَـن المُجتَمع، وعندما يتزوَّج، ينفتح على حميميَّة العلاقات الاجتماعية.

نَظرَ إلى السّاعة مِن هاتِفه الخَلَوي وكانَت تشير إلى الثالِثة والنصف. حينها أدركَ كـم أن الوقـت مـضى مسرعاً، وعليه أن ينام كي يسـتفيق في السادسـة والنصف صباحاً، يعدّ الإفطار لأبيه، ويضعه بجانِب رأسِه. فيتمتم الأب إن كان يقظاً: أنا رضيان عنك يا بني، الله يرضى عنك.

وإن كان نائِـماً يتركـه في نومـه ويخـرج، يقود دراجتـه الهوائيـة متَّجِهاً إلى المدرسـة، يفتح الأبواب، وتبدأ الحركة تدبُّ في المدرسة مع دخول الطلاب، والأساتذة.

وعندما يدخل الطلاب في الصف، كالعادة يناديه كاميران مستثمر مطعم المدرسة، كي يساعِده في قَطع أطراف أرغِفة الخُبز، وأحياناً في قلي الفلافل، أو تقطيع البندورة، وتحضير السندويش في كيس حتى يكون جاهِزاً عندما يخرج الطلاب إلى الفرصة.

وفي أثناء العمل يتناولان معاً أقراص الفلافل الساخِنة مع قِطع الخُبز الزائِدة وقطع البندورة.

ثم بعد الانتهاء من وجبة الفلافل، وتحضيرها في كيسٍ كبير، يُساعده في تحضير سندويشات المرتديلا، عندما يراه يفتح علبةً كبيرة من المرتديلا، ويحيلها إلى شرائح وهو يقول: بعض الطلاب لا يأكلون الفلافل يا سلوان، يريدون مرتديلا.

ثم يضع شريحة لحمٍ بين قطعة خبز ويضع معها قطعة بندورة، ويتناولها قائِلاً: المرتديلا لذيذة مع الخبز والبندورة، ويشير بيدِه مُستأنِفاً القَول:

مُدّ يدك يا سلوان، كُلْ. فيمُد يده ويأكل وهو يعينه حتى يمتلئ كيس المرتديلا أيضاً.

عند ذاك يخرج إلى غرفته الصَغيرة في المدرسة، يضع إبريقَي الشّاي والماء الكَبيرَين على الغاز، وينتظر حتى يُصبح الشّاي جاهِزاً، فيأخذ كأساً منه إلى المُدير في مكتبه، ثمّ يعود ويملأ إبريقاً ويتّجه به إلى كاميران، يتناولان الشّاي معاً، ويتبادلان في ضيافة السجائِر وإشعالها حتى يرنّ جرسُ الفرصة، ويملأ الأسماع برنينه المُرتَفع. حينها يذهب سلوان إلى غرفته ويأخذ كاسات الشاي إلى الأساتِذة في الإدارة.

* * *

في أمسيةِ اليوم التالي، وهو يهيِّئ نفسه للذهاب إلى بيت خالته بحسب الموعِد، بدأ عليه القَلق وهو يشرد، هل سيوافق أهلُها، هل ستوافق، هل ستُعجبه، هل سيُعجبها، ألا يوجد أحدٌ في حياتِها؟.

كلّ هذه الأسئلة أخذت تدور في رأسه، وهو يقود درّاجته الهوائيَّة نحو بيتِها.

عندما وصل البيت، أوقفَ الدرَّاجة على الوقّافة بمُحاذاة الرصيف، وتقدَّمَ نحو الباب المُغلَق وهو ينظر في الشارع يمنةً ويسرةً. رفع يده ورنّ بسبَّابته جرس الباب، وهو يحاول أن يضبط نفسه من حالة القلق التي دَهَمته.

بعد قليلٍ، عاد ورنَّ جرس، فانفَتَح شقُّ الباب، وتراءَت خالتُه، ودَعَته للدخول قائِلةً: أهلاً وسهلاً يا بني، تفضَّل كنتُ أنتظركَ.

قال: تسلمي يا خالتي، وأنا أيضاً كنتُ أعدّ الساعات من البارحة وحتى الآن.

تَقدَّمَت به إلى زوجها وابنها وهما يشويان اللحم في ركنٍ من الحوش وقالَت: حماتك تحبّك يا سلوان، عشاؤنا اليوم طيِّب.

ابتسم قائِلاً: الرائحة تفوح إلى الشارع.

سلَّمَ على زوج خالته، وعلى ابنها، وجلس على كرسيٍ بجانبهما، وبعد نحو نصف ساعةٍ كانت المشاوي المؤلَّفة من الكباب وصدر

الدجاج جاهزة.

بعد تناول الطعام، وشرب الشـاي، قالت له: البنت راحت لبيت جدّها في القرية، وبعد أسبوع ترجع.

عاد إلى البيت وهو يشعر بأنّ الأسبوع سيتحوَّلُ إلى سنة حتى يأتي، كم سيكون أسبوعاً ثقيلاً وبطيئاً.

وبـدأت الأيام تمضي بطيئةً كـما توقَّع وهو ينتظـر اليوم الأخير من الأسبوع كما لو أنَّه لن يأتي، كما لو أنَّه حلمٌ لن يتحقَّق.

لكنّـهُ جاء رَغـم كلّ بطئه وكل ثقله، وعند العـصر بعد عودته من العمـل، اتَّجـه إلى بيـت خالَته، ومـا إن رأته حتى قالت له بأنَّها سـوف تذهب لتُخبر الفتاة كي تأتي.

جلـس في الغرفـة مُرتَبِـكاً، وبعد قليـلٍ عادت خالتـه وهي تقول: ادخلي يا سَكينة.

نهض واقِفاً على قَدَمَيه، فدخَلَت الفتاة وألقَت عليه السـلام بشيءٍ مِن الحياء.

أجابهـا بردّ السَـلام وهو ينظر إليها ويُقـاوم الإرباك. فدعته خالته إلى الجلـوس، ثم دعـت الفتاة إلى الجلوس في ركـنٍ قبالَته، وبعد قليلٍ استأذنتهما وخرجَت.

لبثَ سلون ينظر إليها وهي خَجِلة وصامِتة تنظر إلى الأرض.

سـاد صمتٌ على المكان، وهمـا يتبادلان النظرات خِلسـةً، فعندما تنظر إليه، يحيد بنظرِه عنها، وعندما ينظر إليها تحيد بنظرِها عنه.

أحسَّ بارتياحٍ وأنسٍ وهو ينظر إليها، فبادرها بالقول: كيفك.

رفعت عينيها ونظرت إليه قائلِةً: الحمد لله، أنت كيفك.

قال: الحمد لله

قالت: ماذا تعمل؟

قال: مستخدم في مدرسة ابتدائيَّة

قالَت: مُثبَّت في العمل، أو بعقد مؤقَّت؟

قال: مُثبَّت

عند ذاك تناهى طرقٌ خافِتٌ على الباب، ودَخَلتْ خالتُه وهي تحمل كأسَين من عصير البرتقال، ضيَّفتهما وما لبثت أن خرجَت.

قال وهو يرتشف رشفةً من العصير بيدٍ مُرتعشةٍ بعض الشيء: ماذا تفعلين هذه الفترة؟

قالت: متفرّغة لعمل البيت، وأحياناً أساعد أمّي في الخياطة.

قال: هل درستي؟

قالَت: إلى الصف التاسع، ولم أكمل.

قال: وأنا أيضاً درستُ إلى الصف العاشر وتركتُ المدرسة.

ثم ابتَسَم وقال: لكنَّني بعد سنواتٍ عدتُ إليها كمستخدم.

قالت: وقبل الوظيفة ماذا كنتَ تعمل؟

قال: في المطاعم.

دعاها كي تشرب العصير، فرفعت الكأس ورشفت رشفة، ونهضت قائلةً بأنَّها تأخَّرَت عن البيت.

عندما رأتها خالته وهي خارِجة، تقدَّمَت إليها وسألَتها عن رأيِها، فقالَت أنَّها استَلطَفَته.

قالَـت وهـي تُحدّق في وجهِها: بصريـح العِبارة يا سَـكينة، موافقة على الزواج منه، أو رافضة، أو تحتاجي إلى قت للتفكير؟

قالَت: أنا موافقة، الشاب ظريف وأعجبني.

فَرِحَـت الخالـة وهي تودّعهـا، ثمّ مـا لبثت أن عادت إلى سـلوان الذي كان جالِساً في موضِعه، جَلسَت بجانِبه وقالَت: إي يا بن أختي، حنطة ولّا شعيرة؟

قال وهو يتناوَل ما تبقَّى في الكأس من عصير: حنطة يا خالتي.

قالَـت: ألف مبروك يا بنـي، البنت أيضاً قالَت أنَّهـا موافقة. وهذا مُشـجّع، لكنّه لا يكفي، ولا بدّ من موافقـة أهلها. ثم ربَّتَتْ على كَتِفه وقالَـت: بكرة حبيبـي أحكي مع أمّهـا بالموضوع حتى يسـألوا عنك ويُقرّروا.

نهـض سـلون مسـتأذِناً بالخـروج ومقدِّماً الشـكر لخالتـه، فقالَت وهي تودّعه: لا تشـغل بالك، إذا كان في زواجك منها خير لك ولها، جعلها الله من نصيبك، وإذا كان فيه ضرر لك ولها، صرفها الله عنك، وصرفك عنها.

* * *

في اليـوم التـالي، ذهبـت خالته إلى أمِّهـا، وبعد أن تناوَلَـت فنجاناً من القهـوة ودخَّنَ سـيجارَتَين قالَت: جئتكِ اليوم يا جـارتي فتحيَّة وأتشرَّف أن نُصبح أقرباء.

قالَت فتحيَّة: وأنا أتشرَّف بك يا جارتي.

قالَت: جئتُ أطلب ابنتكِ لابن أختي.

قالَت: لا يوجَد عندي أي مانع يا نواهل، امسكي بيدِها الآن وخذيها معك، وألف مبارك.

ابتسَـمَت نواهـل وقالَـت: أعرفـك كريمـة وطيبـة يـا جـارَتي لذلك وضعـتُ عيني على سَـكينة عندما أردتُ أن أختـار فتاةً لابن أختي. وهو شاب خَلوق وعنده بيت وراتب. ومعكِ وقت يا جارتي حتى تستشيري جاري كاظم وأنا بانتظار جوابكِ.

وخلال أسـبوعَين كانَت الموافقة النهائيَّة، ورأت سَـكينة نفسها لأوَّل مرَّةٍ في بيتها الزوجي، تعيش تفاصيل حميميَّة الحياة الزّوجية.

ومع مرور الأيام وهي تنعم بحياتِها الزوجَّة، صارَت تكتشـف بأنَّها لم تكـن تعـرف الرجل جيداً، وأنّ المرأة لايمكن لهـا أن تعرف الرجل جيداً إلاّ إذا تزوَّجت، وعندها سـتعرف أباها أكثر، أخاها، أقرباءها، وفيما بعد ستعرف ابنها الرجل أكثر.

تحوَّل بيتُها إلى كل حياتها، وغَدَت تهتم بأبيه كما لو أنَّه أبوها، وفي كثيرٍ

من الأوقات تناديه: أبي.

ذات يوم زارَتها جارتُها ترنيم، وهي امرأة أرمَلة توفي زوجُها منذ نحو سنة ولديها طفلٌ في العاشِرة من عمره. وطَلَبَتْ مِنها أن تصطحِبها إلى جمعيَّة الولاء الخَيريَّة التي تُقدِّم مُساعدات للأيتام.

قالَت إنَّها لا تستطيع إلاّ بعد أن يرجع زوجُها مِن العَمل، وتستأذِنه في ذلك، وإذا وافَق، ستستطيع أن تَخرج معها غداً.

في المساء كانَت سكينة قد نسَت الأمر عندما اتَّصَلَت بها جارتُها، وأرادَت أن تعرِفَ إن كان زوجها قد وافَق أم لا؟.

قالت: عزيزتي، بعد قليل أتصل بك.

عندذاك أخبَرَت زوجها بالأمر، فقال: رغم أنني غير مقتنع بغالبية هذه الجمعيات، لا بأس اذهبي معها ما دامَت جاءت إلى بيتِنا وطَلَبت هذه المُساعَدة منك.

عند صبيحة اليوم التّالي، جاءت إليها جارتها واتجَهَتا على الفَور إلى مقرّ الجمعية، لكنّ مديرة المكتب قالَت لهما بأنّ مُلا أرسلان رئيس الجمعية ذهَب إلى أداء الحج والعُمرة، وسيعود بعد عشرين يوماً.

سألَتها ترنيم إن كان بالفعل سيُقدّم لها مساعدة، حتّى تعود في الموعد، فأخبَرَتها بأنّ مُلا أرسلان له أياد بيضاء على كثيرٍ من اليتامى، ثمّ طَلَبَت أن تأتي وتجلب معها دفتر العائلة، وشهادة الوفاة، وصورة شخصيَّة لها، وسند إقامة. حتّى تُثبّت اسمها في السجل لتحصل على المساعدات بين فترة وأخرى.

خَرَجَتا من الجمعية واتَّجَهتا نحو موقف باص النقل الداخلي، فقالَت

ترنيـم: يقولون بأنّ هذه الجمعية تُقدّم مسـاعدات جيدة للأيتام، وأحياناً تُخصّص لهم رواتب شهريَّة، وتشتري لهم البيوت.

تَعرفين يا سَـكينة، وضعنا الاقتصادي سـيئّ ولولا ذلك ما جئت إلى طَلَب المُسـاعَدة، لكـن ما أردتُ أن أجيء لوحـدي لأنّ المرأة التي دلَّتني على الجمعيَّة، شَ دَّدَت عليَّ وهي تقول: لا تروحي لوحدك.

قالَت سَـكينة: ما سـمعت من قبل بهذه الجمعية، ولا برئيسـها، لكن كلام صديقتك يبعث على الشك.

قالَت ترنيم: بعد ذلك سـألتُ بعض معارفي عن هذا الشخص، مِنهم مَن أثنى عليه، ومِنهم مَن قال إنّ لديه علاقات نسـائيّة مشبوهة. وهذا ما جَعَلَني أتردَّد في الذهاب لوحدي.

* * *

مُلا أرسـلان، شـاع هذا الاسـم في المدينة بشـكلٍ مُباغِتٍ، ولم يكن أحد يعرفه قبل ذلك رَغم أنَّه مِن سُكانِ المدينة القُدامى.

وهو ينتمي إلى عائلةٍ بائسة، إضافة إلى أنَّها مُفَتَّتة حيث شاعَت علاقة غير شرعيـة بين أبيه، وبين زوجة جـاره، الأمر الذي أدَّى إلى طَلاق أمِّه وزواجها مِن رجلٍ آخر.

وكانَ أبوه يُعرَف في الحي بأنَّه زير نِسـاء، وُمُدمِنُ خَمر، لذلك لم يكن أحد مِن الجوار يسـمح له بأن يدخل بيته، ومِنهم مَن حَذَّره مِن مجرَّد طَرق الباب، مهما كان السَبَب.

عنـدذاك وبينـما كان أرسَـلان ينظـر إلى داعيـةٍ في إحدى قنـوات التلفاز، لا يـدري كيـف وَمَضَت له فكـرة أن يتحوَّل إلى داعية، وغـدا يُهمهم في سرّه وهـو ينظـر إلى الداعية: لا مسـتقبل لك يا أرسـلان، لأن أبـاك أخرجَكَ مِن المَدرِسـة قبل أن تُكمِل تعليمك، ولا مهنـة لديك، ولا أحد يحترمك، كبرتَ على السِـباب، والضرب، والإهانة من أبيك، وحتى لو عملتَ عشر سنوات عامِلاً، لا تستطيع أن تتزوَّج.

الذي مثلك يا أرسلان، لا مخرج أمامه سوى الدّعوة، حينها سيكون لك شأن، وتتحوَّل من منبوذ إلى كائن اجتماعي يقصدكَ الناس.

في يـوم الجمعـة القادم تفاجأ الجيرانُ به يدخل الجامـع لأوَّل مرةٍ ويُصلّي، وبعد الصَّلاة تَقدَّمَ إليه البعض وأثنى عليه.

الأمـر الذي شَـجَّعَه، فصار يـؤدّي الصلـوات كلّها في المَسـجد، ويُطلق لحيته، ويرتدي جلباباً أبيَضَ اللَّون، ويحمل بيدِه مسبحة طويلة بـ 99 خَرَزة. ثـم بدأ يدخل المَسـجد قبل موعد الصَلاة، فيتنـاوَلَ مصحفاً ويقرأ حتى يحين موعد الصَلاة.

وذاتَ يوم ناداه الحاج أشهب، مؤذِن المَسجد وقال له: يا أخ أرسلان أريد أن تؤذِن اليوم بدلاً عنّي لصلاة العَصر، لأنَّني سأذهب إلى طبيب الأسنان.

قال: تكرم أنا جاهز يا حاج.

وبعـد ذلـك صار يسـتمع من الانترنـت إلى أصـوات المؤذّنـين ويتدرَّب عليها، وبينَ فترةٍ وأُخرى يؤذِّن في المسجد.

عندما حلَّ شهر رمضان، بدأ الناس يعطونه الزكاة، ويشترطون عليه بألاَّ يعطي شيئاً لأبيه كونه تارك صلاة، ومُدمن كحول.

لم يكنْ أرسـلان يُصدِّق المبالغ التـي وَصَلَته، وحتى لا يأخذها أبوه، راح يودعها في المصرف.

بعد سنةٍ من المداوَمة على المَسجد، قال له الحاج أشهب: أنتَ رجل صالِح يا أرسلان، لا علاقة لي بأبيك، وأريد أن أزوّجك ابنتي.

قال: بارك الله بك يا حاج، وهذا شرفٌ كبير لي.

قـال: لكن أريد أن تسـكن لوحدها في بيت بالأجـرة، وإذا لا تقدر تدفع الأجرة، أدفعها عنك.

قال: موافق يا حاج، أمرك، أنا جاهز أن أستأجر لها البيت، وأدفع أجرته.

بعد زواجِه من ابنة الحاج أشـهب باتَ يُعرَف بين الناس بخادم المَسـجد، كونـه تـولَّى مهمَّـة تنظيـف المسـجد، وإصلاح مـا يطـرأ عليه مـن أعطال في

الكهرباء، أو المياه، أو ترميم بعض الأركان فيه.

وبـدأ الناسُ يُجزلون له العطاء مـن الصدقات، والزكاة، وإضافةً إلى ذلك صـار يُعلّم الأطفال قراءة القرآن من خلال دروسٍ في المسـجد، فيغدق عليه أهاليهم بأموالٍ وهدايا.

ومـع تكاثـر الأموال لديه، أراد أن يتوسَّـع أكثر، فطلب مـن الأطفال أن يُخـبِروا أهاليهـم بأنَّه يَختم القرآن نيابةً عن الأشـخاص الأمّيـين، أو الذين لا يسـتطيعون القراءة بسـبب عاهـاتٍ أو أمراض، وحتـى لا ينحرموا من أجر ختم القرآن.

عند ذاك بدأ الناس يطرقون بابه حتى يختم عنهم القرآن، ويضعون أموالاً في ظروفٍ ويُقدّمونها له.

وعندمـا تكاثَـرَت عليه الطلَبات، بـدأ يُفكِّر بِمَخرجٍ حتـى رأى أن يوزِّع أجـزاء القـرآن على الأطفال. وإذ ذاك تمتَم في نفسـه: إذاً قـرأ كل طفل جزءاً، سأوزّع الأجزاء على ثلاثين طفل، وخلال ساعة ننتهي من ختمة، وهذا دخل إضافي يومي.

مـع تكاثـر النقود في المصرف، اشـترى أرسـلان بيتاً لا يمكن أن يشـتريه سـوى كِبار الأثريـاء، كان بيتـاً حديثاً مؤلَّفاً مِـن طابقين، وعنـد ذاك نَصَحَه حموه ألاّ ينتقل إليه، وألاّ يُخبِر أحداً، لأن الناس سيتوقَّفون عن إعطائه الزكاة والصدقات عندما يعلمون بملكيَّتِه للبَيت.

قال له: أجّر البَيب أفضل لك، وابق في بيتك بالإيجار.

هزَّ رأسه علامةً بالإيجاب وقال: صدقت يا عمّي.

* * *

بعد تفكيرٍ طويلٍ، قرَّرَ أرسلان أن يتركَ خدمة المسجد ويتفرَّغ للدعوة، ثم اشترى بيتاً آخر وأقام فيه، واشترى سيارةً، فبدأ الناسُ رجالاً ونساءٍ يتوافَدون إلى بيته للفتيا، أو كي يُسمّي مولوداً جديداً ويؤذِن في أذنِه، أو يُفَسِّرَ حلماً، أو يقرأ شيئاً من القرآن على مريض، أو يدعو لشخصٍ معسّرٍ كي يفرج الله عنه.

وذات يوم أتته امرأة جميلة وطَلَبَت منه أن يدعو لها كي تَلد، وعندما دخَلَت إلى غرفَته برفقة زوجته، وما إن وَقَعَ نَظَره عليها حتى أحسَّ برغبةٍ إليها.

وفي تلك اللحظة نظرَ إلى زوجته التي بادَلَته النَظَر، فتسرَّبَ إليه شعورٌ لأوَّل مَرَّةٍ بمدى دقّة حاسَّة المرأة، فلم تكن نظرة عاديَّة، بل كانت نظرة تحمل إليه الإدانة رغم أنَّها كانَت نظرة خاطِفة.

وعندما خَرَجَت المرأةُ، لبثت زوجَته تنظر إليه ذات النَظرة، وهو يُحاول أن يتهرَّب منها.

عند ذاك همهم في سرّه: لا بد أن يكون لك مقرّ خاص خارج البيت يا أرسلان حتى تستقبل فيه الذين يقصدونك من الرجال والنساء بعيداً عن زوجتك.

وبعد شهرٍ استأجر بيتاً وحوَّله إلى جمعية خَيريَّة، ثم اشترى بعض الحسابات والقنوات في الانترنت وغدا يدعو الأغنياء كي يأتوا بزكواتهم وصدقاتهم إلى الجمعية حتى يوزّعها على المُحتاجين والمستحقّين، وقال بأنَّه

يتحرَّى ذلك بدقّة.

وبـذات الوقت دعا الفقراء والمُحتاجين كي يأتوا إلى الجمعية ويُسـجّلوا أسماءهم ليحصلوا على استحقاقاتِهم.

لم تمضِ سـنة حتى أصبح أرسـلان مِن المشـاهير، وتجمَّعَت لَديه أموالٌ لم يكن يتخيَّلها، رغم أنَّه يعطي المُحتاجين الذين يقصدون جمعيَّته.

تَمتـمَ وهو جالـسٌ على كُرسـيّه في مكتـب إدارة الجمعيَّة: ومـا فائِدة هذه الأمـوال يا أرسـلان، وأنتَ لم تسـتطع أن تبنـي عِلاقة مع امـرأة واحدة، كل الذين يأتوك هم رِجال، أو نساء مُتقدِّمات في السِن، أو غَير جُميلات.

المـال دون النسـاء لا يُسـاوي شـيئاً مهـما كثر يا أرسـلان، المـال يكتمل بالنِساء، والنساء يكتملن بالمال.

عند ذاك دَخَلَ أحد مُعاونيه، ولَمَّا رآه شارِداً قال بعد نحو خمس دقائِق مِن جلوسِه: ما بكَ يا مُلّا، أمور الجمعيَّة ممتازة؟

نَظرَ إليه وقال: أعرف، لكن أموري غير مُمتازة يا أدهم.

قال: خير إن شاء الله مُلّا، أقلَقتَني.

قـال: ألا تَـرى يا أدهم.. كل هذه الجمعية، وكل هذه الأموال التي تصِلنا والأمـوال التي نُنفقها على المُحتاجِين، لم تدخل إلى جمعيَّتنا امرأة جميلة واحِدة بِمُفرَدِها.

ابتسَمَ أدهم وقال: إي بسيطة مُلّا، ولا يهمك.

عندها تذكَّرَ أنَّه مُنذ عِدَّة شهور طَلَبَ مِن أدهَم أن يرى له امرأة كي تعمل مُديرة لِمكتبه، فكرَّرَ عليه الطَلَب.

قال أدهم: تكرم يا مُلّا.

وبعد أسبوعٍ أتى أدهم بامرأةٍ إلى الجمعيَّة، وطَلَب مِنها أن تجلس في غرفة الانتظار ريثما يعود.

دَخَـلَ عـلى المُلّا وكان ثمَّـة أناس لَدَيه، مالَ إلى أذنِه وهَمَـسَ له، فهزَّ المُلّا رأسه، وأشار له كي تنتظر.

في هـذه الأثنـاء كانَت المرأة تتحدَّث مع مُدير المُكتَب وتسـأله عَن أوقات الدوام، وعَن طبيعة العَمَل، والراتِب؟.

-: الدوام متعب يا مدام، صباحي من الثامنة وحتى الثانية، ومسائي مِن الخامِسة وحتى الثامِنة.

ودومـاً لدينا ازدحام وضغط عمل، لكن الراتب جيد، والمُلّا لا يُقصّر في المُساعَدة عند الطوارئ.

ثم سألَها: هل ستعملين في الجمعية يا مدام؟

وقبـل أن تُجيب، تَقدَّمَ إليها أدهم، وَجَلَسَ بِجانِبها قائلاً: سـتدخلين بعد قليـل إلى مكتب رئيـس الجمعية. فأومأت رأسـها بالإيجاب شـاكِرةً إيّاه على المُساعَدة في إيجادِ فُرصَة العَمَل.

عندما تناهى صوت المُلّا وهو يودّع ضيوفه، أشـار لها أدهم كي تتَّجه إلى مكتبه، فاعتَذَرَت المرأة وقالَت إنَّها لا تستطيع أن تَعمَلَ في الدَوامَين.

قال: انهضي، المُلّا ينتظرك، أخبريه بأنَّكِ قادرة أن تعملي فقط بدوام واحد وهو الذي يُقرِر.

فنَهَضَت المرأةُ، طَرَقَت الباب، ودَخلَت قائلِةً: صباح الخير.

قال وهو يُصوّب نظراتٍ ثاقِبةٍ إليها: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

قالَت: أخبرَني السيّد أدهَم بأنَّك تحتاج إلى مديرة مكتب.

قال: صحيح.

قالت: جئتُ مِن أجل ذلك، لكن لا أستطيع أن أعمل بدوامَين.

قال وهو ما يزال يُصوّب نظراته الثاقِبة إلَيها: أي دوام يُناسبكِ؟

قالَت: الصَباحي.

امتَـدَّت سُـبابتُه إلى زر الجرس الموجود بِجانِبه، فَدَخـلَ مدير المكتب على الفَـور: خذها إلى أدهـم حتى يُتمم لها إجراءات التعيين في الجمعية. قالَها المُلّا وتناوَل هاتفه الخَلَوي يردّ على مُكالَمَة.

عندما رآه أدهم مستغرِقاً في الشرود، قال: يا مُلّا لدي فكرة تجعل الجمعية تمتلئ فقط بالنساء.

التَفَـتَ إليه المُلّا كما لو أنَّـه كان في غَفوة وانتَفَضَ مِنها بَغتةً وقال: كيف يا أدهم؟!

نهض أدهم مِن كرسـيِّه، وتَقدَّمَ إلى المُلّا حتـى أصبح أمام طاولة المَكتَب: نُخصِص الجمعيَّة لِمُساعَدة اليَتامى.

افـترَّ ثغرُ المُلّا عن طرف بسـمة، وهو يَنظر إليه بِعَينَـين جاحِظَتَين، فاقتَعدَ أدهم كرسـياً قريباً مِن المُـلّا الجالِس خَلف الطاولة، واسـتأنَف يقول: هكذا نَضمَن بأن التي ستأتي لن يكون لها زَوج، وتكون حَرَّة في الخروج من البيت.

هَمهَمَ المُلّا في سِرِّه: وتكون الأولويَّة للنساء الصَغيرات والجَميلات.

قال أدهم بصوتٍ خافتٍ: سيكون أمامكَ يا مُلّا أن تَختار نحو خمس نساء مِمَّن تشاء لِيَعمَلن في الجمعيَّة.

ثم أردَف بخفوتٍ أكثر: وبين فترة وأخرى يمكن أن تسـتبدلهن بحسـب راحتك.

بعـد عـدَّة أيام مِن الإعـلان في المنابِر الالكترونية بأن جمعيَّة مُلّا أرسـلان الخيريَّة قد تَخصَّصَت لِتقديم المُساعدات لليتامى، وأنَّها سـوف تُقدِّم رواتِبَ شَهريَّة لهم بِحَسَب الأولويَّات.

أخَـذَت أفـواجُ الأرامِل تنهـال على الجمعيَّة للتّسـجيل فيهـا والحصول عـلى الراتب الشـهري والمَعونات الأُخرى التي وَعَدَت بِهـا الجمعية في المنابِر الالكترونية الخاصَّة بِها.

بِموازاة ذلك بدأ النشاطُ يدبُّ في أوصال مُلّا أرسَلان، وقد وَضَعَ لِنَفسِه برنامَجاً بحيث يظهر بشكل متواصل في منابِره وهو يُصوّر مقاطع الفيديو عن كيفية توزيع الرواتب الشهريَّة والمُساعدات لليتامى.

الأمـر الذي دفع بعض المُقتَدرين لِشراء قطع من الذهب وإعطائها للمُلّا كـي يُفرّح بهـا قلوب اليتيـمات، أو إرسـال كمّيـاتٍ مِن الدجـاج، أو اللحم الأحمـر، أو الثيـاب سـواء للصّيـف أو الشّـتاء، أو مسـتلزمات المدرسـة مِن حقائب، ودفاتر، وأقلام.

ويقـوم طاقمُه الالكتروني بتصويره وهو يُقـدِّم بيدَيه هذه العطايا لأفواج أمَّهات اليتامى اللواتي يتم صفُّهن في طابورٍ طويل أمام باب الجمعيَّة.

عندمـا وقف المُـلّا بسـيارَته صباحاً أمام بـاب الجمعيَّة، كانَت ثمَّة نسـاء واقفات أمام الباب ينتظرنه، فتقدَّمَت امرأة إليه وقالت بصوتٍ مُرتَفع: لأنَّني لسـتُ جميلة صار لي شـهر وأنا أتردَّد هُنا ولم يسـجّلوا اسمي، ولم يسمحوا لي

بالدخول إليك، ما ذنبي إذا خلقني الله دميمة، أنا لدي أربعة يتامى، وأنت لا تعطيني مِن جيبك، بل أنتَ تَعيش مِمّا يعطيك الأغنياء لليتامى.

أستأنَفَ المُلّا المضيّ نحو مكتبه كما لو أنَّه لم يسمع شيئاً، فلحقه صوتُ امرأةٍ أخرى: هذه ليسَت جمعية خيريَّة، هذا بيت دعارة.

دخل إلى مكتبه وجَلَسَ خلف الطاولة محاولاً تجاهل ما قد سمع، وبعد قليلٍ قدَّمَت له مديرة المكتب كأساً مِن الشاي، رشف رشفةً من الكأس وطلب منها أن تأتي رواء مسؤولة قسم التوزيع.

بعد نحو خمس دقائق دخلتْ رواء المكتب دونَ أن تطرق الباب وقالت: خير يا مُلا؟

أشار لها بالجلوس، وعاد يرشف الشاي، وعندما انتهى من الكأس، نظر إلى رواء وتذكَّرَ دخولها لأوَّل مرَّةٍ المكتب برفقة طفلَيها، حينذاك، لبث ينظر إلى جمالِها وهي تتحدَّث طالِبةً أن يوافق على تسجيل اسمها في قائمة المُستحقّات للراتب الشَهري، عند ذاك دعاها للجلوس، وصار يُقلِّب في الثبوتيَّات التي قَدَّمَتها.

في تلك اللحظات دَخَلَ شخصٌ، فنهض المُلّا يُرحِّب به بِحفاوةٍ، ودعاه إلى الجلوس، وفور جلوسه، قَدَّم له عُلبة الشوكولا، فتناوَلَ الرجلُ حبَّةً وهو يشكره. ثم قَدَّم العُلبة للمرأة التي تناوَلَت حبَّة شاكِرةً إيّاه.

بعد قليلٍ نهض الرجل مِن كرسيِّه وقال إنَّه على عجلة، ثم أعطاه كيساً ضخماً وأردفَ قائِلاً: هذه رواتب خمسين عائلة يتيمة لمدَّة ستة شهور، لوجه الله تعالى.

تناوَلها المُلاّ مِن يده وهو يقول: تَقبَّل الله منك أخي، إن شاء الله الرواتب

سوف تصل، وأسأل الله أن يتقبَّلَ مِنك.

بخـروج الرجـل، قال المُلاّ للمـرأة: وجهك خير على جمعيَّتنـا. ثم نَظَر في الاسم المُدوَّن على الاضبارة وقال: يا أُختنا رواء.

قالَت: بارك الله بك أخي الفاضل.

خَيَّـمَ صمتٌ على المكان وهو يُقلِّـب الثبوتيّات، ويُدقِّق فيها، والمرأةُ تنظرُ إليه بتركيزٍ مُنتَظرةً أن يمدَّ يده إلى القَلم ويوقّع بالموافَقة.

رَفَع رأسه بغتةً وقال: ممتاز يا أختنا الكريمة، بعد غد تعالي واجلبي معك سَنَد إقامة، وعلى بركة الله.

عندما خَرَجَت المرأة، فَتَحَ الإضبارة كرّة أُخرى، وصار ينظر في صورتِها، وبعـد قليـلٍ رَفَعَ الصـورة وطَبَعَ قُبلـةً عليها وهو يُدندن: سـتكونين زوجتي الجديدة على سنَّة الله ورسولِه يا رواء خاتون.

بعد شـهرَين مِن الموافَقة على طلبِها، وعندما جاءت لتقبض راتب الشَّهر الثاني، قال لها المُلاّ وهو يمدّ الراتب إليها: وجهك خير علينا يا رواء خاتون.

دُهِشَت المرأة عندما سمعت منه لأوّل مرة: خاتون. وأنَّه لم يقل لها: أُخت.

اردَفَ قائِـلاً: البارحة جاءني فاعل خير وطَلَبَ مني أن أختار عائلة يتيمة كي يشتري لها بيتاً في شهر رمضان القادِم.

قالت وقَد انفتَحَت أساور وجهها: إي يا مُلّا.

قال: الحقيقة فَكَّرتُ بك.

نَطَّـت مِن كُرسـيها وراحَت تُقبِّل يده، عندذاك وهو يسـحب يده وقعت يده الأخرى على رأسِها.

دَهَمته رغبة جامِحة، فصار يمسد بكفّه على الشَعر، فاسترخَت هي الأُخرى

واستَسلَمَت بين يدَيه.

تَرَك الطاولة، وتقدَّم إليها وفي لحظاتٍ ضَمَّها إلى حضنه بقوَّةٍ وهو يقول: أحببتكِ يا رواء، وأريدك زوجةً لي على سنَّة الله ورسوله.

قالَت وهي تضمَّه: هذا يُشرّفني يا مُلّا.

تَركها وعاد يجلس خلف طاولته وهو يقول: حدَّ الله بيني وبين الحرام، أستغفر الله العلي العظيم. أريدكِ بالحَلال يا رواء خاتون.

قالَت وهي تنظر إليه: أنا لك بالحَلال يا مُلّاي وتاج رأسي.

قال: انتظري اتصالي بك حتى نعقد القران الشّرعي

ودَّعَته قائلةً: أمرك يا مُلّاي.

قال: ليكن هذا سرّ بيننا.

قالَت: سرّ يا تاج رأسي.

بِخروجِها، اتَّصل بهاتفه مع أدهم طالِباً مِنه الحضور فوراً.

وعندما جاء، قال له: بعد غدٍ سنتغدّى في بيتك يا أدهم.

ابتسَمَ أدهم قائِلاً: زواج جديد يا مُلاّ؟

هَزَّ المُلّا رأسه مُبتسِماً: إي يا أدهم.

قال: مبروك يا مُلّا، كالعادة سأحضر شاهداً لا يعرفكَ كي يشهد معي على الزواج.

قال: ليكن شاهِداً جديداً غير الشهود الثلاثة، لأن كل واحد منهم شَهِدَ مرَّتَين، إذا عرفوني، أتبَهدَل يا أدهم، زوجتي الأولى لن تسكت، وأبوها يمكن أن يؤذيني، ونضطر أن نغلق الجمعية.

-: ولا يهمَّك يا مُلّا، يكون شاهِداً جديداً يراك لأوّل مرة، أذهب إلى

القرية وأجلبه معي.

أخرجَ المُلّا ظرفاً محشـواً بالنقود، وقال: هذا المَبلَغ لك يا أدهم، حسّـن به وضعك.

-: بـارك الله بـك يا مُلاّ، فضلك غَمَرَني. قالها أدهـم وهو يتناوَل الظرف مِن يده.

ثم ناوَلَه ظرفاً آخر قائِلاً: وهذا المبلَغ أكرم به الشاهِد الجَديد.

تناوَلَ الظرف وهو يقول: حاضر يا مُلّا.

بخروجه تَمتمَ المُلّا في نفسه: بقي عليك أن تُطلِّقَ إحدى زوجاتك الأربع، حتـى تضع الجديدة مكانها. وبدأ يُفكّر بالزوجة التي يشـعر بشيءٍ مِن البرود في علاقته الجنسيَّة بِها.

وفي اليـوم التـالي اتَّجَه إلى بيت سـجى، فاسـتقبَلَته بفرحةٍ، وعند جلوسـه قدَّمَت له كأساً مِن الماء.

تناوَلَها ورشـفَ مِنها رشـفةً، ثم اتَّجَه إلى غرفة النوم وهو يُهمهم في نفسه: لتكن المرة الأخيرة، ولتكن مميَّزة عن سائر المرّات.

بعد قليلٍ دَخَلت عليه سجى بفستان نومٍ شفّاف، فرأته عارياً على السرير، تفاجأت به وهي تراه للمرة الأولى بوضعٍ كهذا. وعندما اسـتلقَت بجانِبه، ما لبث أن خلع عنها الفسـتان لتُصبح عاريةً مثله، وبدأت تبدر منه ممارسـات لم يسبق أن عهدتها فيه.

أمضيا نحو سـاعتَين متواصِلتَين والمرأة تزداد دهشـة على دهشـة مِمّا يبدر منه.

ثم نهض وارتدى ثيابه قائِلاً: أنت طالق يا سجى.

حملقَـت إليـه بعينَـين جاحظتَين، فـأردف: طلقة واحدة حتـى أترك مجالاً للعودة.

قالت: كما تُريد يا مُلّا.

ناولهـا مبلغاً مِن المال مع سلسـلة مِن الذهب، وعند خروجه قال لها وهو على عتبـة الباب: ضاعفتُ لكِ الراتب بشـكل اسـتثنائي، وكالعادة تقبضين كل شَهر.

قالت: أشكرك يا مُلّا على كل عطاياك لي.

نَظَرَ إلى رواء التي كانَت مُستغرِقة بالنَّظَر إليه وهو غارقٌ في الصَمت، افترَّ ثَغرُه عَن بسمة، وافترَّ ثغرُها عَن بسمة.

ثـم بغتـة تجلجلَت منه ضحكـة، وصار يُقهقه ملء شَـدقَيه، فـرأت رواء نفسـها أيضـاً تضحك ضِحـكاً مُجلجلاً. ثـم نَهَضَت إليـه، وغَـدَت تُقبّله مِن خَدَّيه بلهفةٍ.

قال: تعبنا هذه الفترة في الجمعيّة، ناديتك حتى تجهّزي نفسك كي نذهب إلى الحج والعمرة في الأسبوع القادم.

رَفعَت رأسها وحَدَّجَته بنظرة: حج وعمرة، حج وعمرة؟!

-: إي حج وعمرتنا كالعادة.

-: أه.. وأين الاتِّجاه هذه المرة؟

-: لندن

في تلـك اللحظـات، تناهـى صـوتُ البـاب، فسـارَعَت رواء واقتعدَت الكرسي، واقتعدَ المُلّا كرسيَّه قائلاً: تفضَّل.

دخَلَ رجلٌ يحمل بيدَيه كيسـاً ضخماً بدا ثقيلاً عليه وبالكاد يحمله، وعند

جلوسه قال: لدي مجموعة شركات تجارية، وهذه زكاتي كلّها جلبتها لك حتى توزّعها بمعرفتك على اليتامى.

وبعد قليلٍ مِن الصمت قال: أتابع أحياناً نشاطك على الانترنت يا مُلّا، ورأيتُ منذ مدَّة أنك اشتريتَ بيتاً لعائلة يتيمة، عندها خطر لي أن أجلب الزكاة كلّها لك.

قال المُلّا: نقوم بخدمة الناس لوجه الله تعالى، ونسأل الله القبول، نحن لا هم لنا سوى مساعدة الأطفال الذين فقدوا آباءهم، ويعانون الجوع والبرد، أو يحتاجون إلى أدوية، أو إلى مسكن، وبقدر ما يأتينا مِن الخيِّرين أمثالك، نقوم بتوزيع هذه المُساعدات.

ثم أردفَ قائِلاً: نحن حتى الآن اشترينا عشرة بيوت لعائلات يتامى، وندفع أجور خمسين بيتاً، وندفع رواتب شهريَّة لمائة وخمسين عائلة يتيمة.

نهض الرجل وقال: رأيتُ أيضاً أنَّك تقوم بتوزيع اللحم على بعض العائِلات اليتيمة. ثم أخرج بطاقة مِن جيبه وأعطاها للمُلّا قائِلاً: البارحة أوصيتُ هذا القصّاب حتى يُجهّز مائة كيس، كل كيس يضع فيه كيلوين مِن لحم العجل، هذه أيضاً توزّعها على اليتامى لوجه الله تعالى، تواصل معه يا مُلّا حتى يجلب لك اللحم في الوقت الذي يناسبك.

شكره المُلّا وقال وهو يتناول البطاقة من يده ويودّعه: بارك الله بك، وتقبَّل منك يا أخي، ونسأل الله أن يعوَّض عليك بالأضعاف، ويحفظكَ مع عائلتكَ.

* * *

في السّاعة الحادية عشرة والنصف، دخلت ترنيم برفقة جارتها سَكينة إلى الجمعية وسألت مديرة المكتب إن كان المُلاّ قد عادَ مِن الحج والعُمرة. فأخبرَتها بأنَّه رجع منذ يومين بالسلامة. ثم أردَفَت تقول وهي تُحدِّق في وجهِها: عرفتكِ، عندما كان المُلّا في الحج والعُمرة جئتِ، ثم نَظَرَت إلى رفيقتِها وأردَفَت مبتسِمة: وكانَت هذه المرأة معكِ.

قالَت: إي، وجلبتُ معي الثبوتيّات المطلوبة.

-: تمام.

قالَتها المُديرة، ودعَتهما إلى الجلوس والانتظار ريثما يخرج ضيوف المُلّا.

جَلَستا في صالة على كرسيَين في فسحة المَكتب، بعد قليلٍ دخلت امرأةٌ، تقدَّمَت من المُديرة، وقالَت لها إنَّها رأت حُلماً، وتُريد أن تتبرَّع بمبلغٍ للجمعيَّة حتى توصِلها إلى بعض المُحتاجين. تناولَت المديرة منها المبلغ، وأعطتها إيصالاً بالاستلام.

وبعد قليلٍ دخل رجلٌ وقال إن عليه نذر، ويريد أن يتبرَّع بالمبلغ للجمعيَّة حتى توزّعها على المحتاجين، فتناوَلَت المديرة منه المبلغ وأعطته إيصالاً بالاستلام.

كانَتا تنظران إلى الناس يدخلون، ويخرجون، وبعد نحو نصف ساعة تناهى صوتٌ رجاليٌ، عند ذاك نظرت المديرة إليهما وهزَّت رأسها، فأدركَتا بإنّه كان صوت المُلّا الذي ودَّع ضيوفه. وبعد لحظاتٍ نهضت مُديرةُ

المكتـب حاملةً بيدِها بعضُ الأوراق ومضت في ردهة الممرّ، اختفَت عدَّة دقائِق، وما لبثَتْ أن عادَتْ وأشـارِت لهما بالدخول إلى مكتب المُلّا الذي ينتظرهما.

نهضَتـا، فمضَـت المُديرة برفقتهـما، حتى أشـارَت لهما بيدِهـا إلى باب مكتبه، وعادَت.

تَقدَّمَتـا إلى البـاب المُغلَق، فمـدَّت ترنيم يدها وطرقت بسـبابتها عدَّة طرقـاتٍ خافتةٍ على البـاب، فترامى صوتُ المُلّا آذِنـاً بالدخول، فأدارَت ترنيم قَبضة الباب، ودَخَلَتا. كان المُلّا جالِساً خلف مكتبه.

ألقَيَتا عليه السَّـلام، فأجابَ بحفاوَةٍ ودعاهمـا إلى الجلوس وهو ينظر إلى سَكينة.

أهـلاً وسـهلاً. قالها بعـد لحظاتٍ للمـرَّة الثانية وهو لا يـزال ينظر إلى سَـكينة كما لو أن له معرفة سـابِقة بِها. وبعد قليلٍ نَهَضَ مِن خلف طاولته وحمل علبة تمرٍ كانَت على الطاولة، وتقَدَّم يضيفهما قائِلاً: هذا تمر الحِجاز.

تناوَلَت كل واحِدةٍ حَبَّة تمرٍ، فعاد المُلّا يجلسُ خَلفَ طاولَتِه.

في تلك اللحظات صار يتنحنح وهو يحسَّ بجاذبيَّة غريبةٍ نحو سَكينة، لم يعهدها في امرأة غيرها مِن قبل.

عند ذاك قالَت ترنيم: أنا أم يتيم يا مُلّا، وسمعتُ أن جمعيَّتكم تُخصّص الرواتب لليتامى، إذا التسجيل مفتوح، أريد أن تُسجّل اسمي.

قال ونظره لا يزال مَعلَّقاً في سَكينة: بفضل الله التسجيل مفتوح.

عند ذاك نَهَضَت ترنيم وقَدَّمَت له الإضبارة قائلةً: هذه هي الثبوتيّات يا مُلّا.

تناوَلَها المُلّا من يدِها، وصار يُدقّق في الأوراق، وعندما انتهى، هَزَّ رأسه وقال: على بركة الله، اعتباراً من أول الشهر القادم تستلمين الراتب المُخصَّص لك.

ثم وجَّه كلامه إلى صاحبتها قائِلاً: وأنتِ..؟

قالَت: هي جارتي وجئتُ أرافِقها، الحمد لله زوجي يعمل، ولدينا ابنتان في المرحلة الابتدائيَّة.

قال وهو ينظر إليها بعمق: ما عمل زوجك؟

قالَت: مُستخدم في مدرسة.

قال: إضافة إلى مساعَدة اليتامى، نحن نُقدِّم مساعدات لبعض العائِلات الفقيرة عند الحاجة مثل الأمراض، أو حصول الأضرار، أو في بعض المُناسبات مثل شهر رمضان، أو العيدَين، أو المولد النّبوي.

وعند نهوضها، طَلَب المُلّا منها الانتظار قليلاً، فمدَّ يده إلى الدرج، وأخرَج ظرفَين، مدَّ واحِداً لترنيم وهو يقول: هذه مساعدَة من الجمعيَّة دبّري أمورك بِها.

تناوَلت ترنيم الظرف من يدِه وهي تشكره وتدعو له بالتّوفيق.

ثم مَدَّ الآخَر لسَكينة، فلم تمدَّ يدها واعتَذَرَت عن أخذه قائلةً إنَّها جاءت مُرافِقة، وليسَت بِحاجة.

أحسَّ المُلّا بأنَّه صُعِق، فبلع ريقه وقال: لا توجد منِّية يا أختنا، هي أموال أهل الخير، لا أعطي شيئاً مِن جَيبي، هذه مَساعَدة لتُفرحي بِها الطفلتَين.

لحظتذاك صوَّبَت إليه نظرةً، وبشيءٍ مِن التردّد مَدَّت يدها، فأحسَّ

المُلّا بنشوةٍ وهي تتناول الظرف من يده، وتشكره.

بِخروجِهما، شَرَعتا تفتحان الظرفَين، وغَدَت كل واحِدة تعدّ النقود.

قالَت ترنيم وقَد انتهَت مِن العَدّ: كَم هو كَريمٌ المُلاّ، هذا المَبلَغ لم يكن يخطر في بالي، يكفي مصاريفنا ستة شهور.

عنـد ذاك انتهَـت سـكينة أيضاً مِـن العَـدّ، فقالَت بتعجّـب وهي تزمّ شَفَتَيها: يا إلهي.. هذا يُساوي راتب سلوان سنة كامِلة.

حَدَّقَـت ترنيـم في حزمة النقـود وقالَت: مبلغي هو نصـف مبلغكِ يا جارِتي، المُلّا كان كَريماً معكِ أكثرَ مِنّي.

دَسَّـت سـكينة الحزمة في الظَـرف، ولم تنبس ببنت شـفّة، وانتَظَرَتا في الموقف ريثما جاء باص النقل الداخلي.

عندما وَصَلَت سـكينة البَيت، كان حموها يجلس على كرسيٍّ صغيرٍ في الحوش، يُدخِّن سيجارة.

ألقَـت عليه السَـلام، ومضَت نحو الداخِل، سَـخَّنَت الشـاي المتبقّي مِـن الفطور، وأخَذَت له كأسـاً. فتناولها وهو يقول: لماذا عذّبتي نفسـك يا بنَتي.

قالت: صحة وعافية ياعمي، يلزمك شيء؟

قال: وفقك الله يا بنَتي، لا شيء.

بعودَتِهـا إلى المَطبَـخ، باشَرَت بتحضير الغداء قبل وصـول ابنتَيها مِن المَدرسة، وبعدهما بِنَحو ساعة، وصول زوجها.

هَمهَمَت وهي تغسـل العدس كي تطبخه للغداء: كيف أخبر سـلوان بهذا المَبلَغ الكَبير، وما هي مُناسَبة أن يعطيني المُلّا كل هذه النقود.

سَـكَبَت العَـدَس في طنجـرة المـاء الـذي بدأ يغـلي، واسـتأنَفَت: هل سيصدّق بأنَّه أعطاني مِن تلقاء نفسه، وأنني لم أطلب منه شيئاً.

أضافَت الزيت والمِلح إلى العَدَس: هل أخفي النقود عَنه حتى لا تقع بيني وبينه مشكلة؟

أجابَت نفسـها بسرعة وهي تمدّ يدها تُخفِت الغاز: لا يا سَـكينة، هذه خِيانَة، كيف تُخفين عَنه شيئاً كهذا.

بِدخول ابنتَيها، قالَت الكُبرى ذات الثمان سنوات: جائعة يا أمّي.

أجابَتها: غَيِّري ثيابكِ، وتعالي خذي سندويشة زعتر حتى يأتي أبوكِ.

قالَت الثانية ذات السـت سنوات: متى نتغدّى اللّحم غير يوم الجمعة يا أمّي، أشتهي اللحم.

ضَمَّتهـا إلى صدرِهـا، واغرورَقَت عيناها بالدمـوع، وهي تتمتم: الله كريم يا بنَتي، ظروفنا صَعبة، والراتب لا يكفينا.

ثم تَرَكَتها وأردفَت: هل تأكلين سندويشة زعتر.

أومأت رأسها بالإيجاب، ومَضَت لتغيير ثيابها.

عندمـا وَصَلَ سـلوان كان الغـداء جاهِزاً، فجلسـوا جميعـاً يتناولون العدس والبصل اليابس.

في تلـك اللحظات، أحسَّ سـلوان بشيءٍ غريبٍ عـلى زوجَته، وتذكَّرَ بأنَّهـا خَرَجَت اليوم مع جارتها إلى الجمعيَّة الخيريَّة، فقال وهو ينظر إليها: هل رجع المُلّا مِن الحج والعمرة؟

وهذه المرَّة لَمَحَ شيئاً مِن الإرباك عليها وهي تقول: إي، مشي الحال.

حتى نبرة الصَوتِ بدت له غير تلك النّبرة التي ألِفَها في زوجته.

عنـد ذاك همهم في قرارة نفسـه: أمثال مُلّا أرسـلان أوبئـة ابتُلينا بِهم، المُشكِلة أنَّهم يتخفّون بعباءة الدِين.

عندما انتهوا مِن الغداء، راحت تُحضِّر الشاي، وهي تشعر بأنَّها تحمل على ظهرِها صخرةً. وانتَظَرَت كما لو أنَّها تجلس على جمرٍ أن يفرغ أبوه مِن الشاي ويتَّجه إلى غرفته.

بانتهاء كأس الشاي مَدَّ سلوان يده إلى الإبريق وصبَّ له كأساً أُخرى، فشربِها ونهضَ يمشي صوب غرفته.

حينذاك تنفَّسَت سكينة الصعداء، وهي تمضي مع زوجِها إلى غرفتهما.

ولـدى وصولهـما الغرفة رمى سـلوان جسـده المُتعَب على الإسـفنجة وتَمَدَّدَ عليها وهو يتأوَّه مِن الإرهاق الذي لقيه في العَمَل.

آنذاك راحَت سَـكينة صوب الدرج، فتحَتـه ومَدَّت يدها إلى حقيبتِها وأخرجَت الظَرف، ومَدَّته إليه قائلةً: اليوم عندما ذهبتُ مع جارتِنا ترنيم، الجمعية صَرَفَت لها مبلَغاً، وصَرَفَت لي أيضاً هذا المبلغ، لم أمسك الظرف مِن يد المُلاّ، لكنه أحرَجَني وقال إنَّه لا يعطي شيئاً مِن جيبه، وهذه أموال الأغنياء يأتون بها إليه ويطلبون أن يوزّعها بمعرِفته على أهل الحاجة.

-: المُشكلة أن هذا الرَّجل سمعته مشبوهة، رَغم كل المُساعدات التي تُقدّمها جمعيَّته للنّاس.

لبثـت صامِتة تنظر إليـه والظرف لا يزال في يدِهـا، وبعد لحظاتٍ مِن صمـت، اسـتأنَف وهو مُمَـدَّد على ظهـرِه، وقد شـبكَ كفَّيه تحتَ رأسِـه: سـمِعتُ في المدرسـة بأنَّه يتزوَّج عرفياً بين فترة وأخرى، ولا أحد يعرف كم امرأة تزوَّج، وكم واحدة طَلَّق.

أذكـر أن أحد الأسـاتِذة قال: هذا المتسـوّل المُحـترف، هوايته الزواج والطَلاق، ويعرف كيف يؤثِّر على الأغنياء في قنواتِه حتى يسلبهم أموال الزكاة والصدقات.

قـال ذلك، وغارَ في صمتٍ، ثم ما لبث أن أغمَضَ عَينَيه، فترامَت إلى سمعه نبرات صوتها: ماذا نفعل بالنقود يا سلوان؟.

قال وهو مُغمَض العينَين: اتركيها الآن في الدخل.

تراجَعَت المرأةُ إلى الخَلف، ورَمَت الظرف في الدخل دون أن تضعه في حقيبتِها، وراحَت تتمدَّد هي الأخرى على إسفنجتها بجانِبه، وقد شَبَكَت مثله كفَّيها تحتَ رأسِها.

* * *

رأت سَـكينة أن تنسى الأمر، وكأن شيئاً لم يكن، ومضت الأيام حتى عـادت جارتهـا وطَرَقت عليها الباب وهي تقول بـإن موعد قبض راتبها الشهري قد حان، وتُريد أن تصطحبها إلى الجمعيَّة كي تستلم الراتب.

ارتَبَكَت سَـكينة وقالَت: زوجي الآن ليس في البيت يا جارَتي، عندما يجيء إذا وافق تكرمي.

-: إي حبيبتي، بكرة رح إن شاء الله أمر عليكِ. قالت ذلك وانصرَفَت دون أن تدخل البيت.

في المسـاء قالَت سَـكينة لزوجها: جارتنا ترنيم طلبت مني أروح معها بكرة لتستلم راتبها من الجمعيَّة.

نظرَ إليها وقال: شغلتها مطولة، ورح تصرعنا كل شهر، اعتذري منها أحسن.

قالَت: إي حاضر.

وراحَـت تشرد بالمبلغ الذي لا يزال في الظرف، وهي كل يومٍ تتفقَده، وتعدّ النقود، فتعرف بأنَّه لم يمدّ يدَه إليها.

في صبـاح اليـوم التّـالي، عندمـا جـاءت ترنيـم لتصطحبهـا معها إلى الجمعيَّـة، اعتَـذَرَت قائلةً بـأن زوجها لا يوافق أن تذهب معها كل شـهر من أجل استلام الراتب.

فعـادَت ترنيـم واتَّجَهَـت على الفَـور إلى الجمعيَّـة. تقدَّمَـت إلى مديرة

المكتب وألقت عليها السلام، ثم أخبرتها بأن اليوم هو دورها لاستلام الراتب.

فتحتَ سجلّاً كان أمامها، وبدأت تنظر فيه، وبعد قليلٍ هزَّت رأسها وطلبت منها الجلوس قائلةً: نعم لك اسم واليوم هو الراتب الأوَّل الذي تستلميه، المُلّا هو بنفسه يُسلّم الرواتب.

شكرتها ترنيم وراحت تجلس على كرسيٍّ، حتى طلبت منها المُديرة أن تذهب إلى مكتب المُلّا.

عندما دَخَلَت إلى المكتب، دعاها المُلّا للجلوس قائلاً: تفضّلي أختنا الكريمة، أهلاً وسهلاً بك، نوَّرتي الجمعيَّة.

قالَت وهي تجلس: تسلم يا أخي الفاضل، بارك الله جهودك في خدمة الناس.

قال: نسأل الله أن يتقبَّل منّا.

قالَت: آمين

قال: كيفو البطل أشهب؟

قالَت: يبوس ايدك، هو هلّا بالمدرسة.

قال: الله يخليه وتفرحي فيه.. اسمه مثل اسم حماي.

قالت: ويخلّي أولادك وتفرح فيهم يا مُلّا.. هذا شرف لنا.

بعد قليلٍ مِن الصَّمت، مدَّ المُلّا يده إلى درجٍ، وأخرجَ حزمة ظروف، وصار ينظر في الأسماء المُدوَّنة عليها، حتى وقعت عيناه على الظرف المكتوب اسمها عليه، فتمتم بخفوت: ترنيم نظمي.

قالَت المرأة وهي تنظر إلى الظرف الذي تَرَكه بين يدَيه، وقد أعادَ بقيَّة

الظروف إلى الدرج: إي مُلّا.. أنا.

قال: المرة الماضية كانت معك امرأة.

قالَت: إي يا مُلّا كانَت جارتي سَكينة

قال: زوجها آذن في مدرسة

قالَت: صحيح يا مُلّا.. وبعد هنيهةٍ أردفَت تقول: اليوم كانَت مشغولة وما قدرت تجي معي.

مَدَّ الظرف وهو جالس، فنهضَت المرأة وتناوَلته مِن يده شاكِرةً إيَّاه وداعيةً له بالتوفيق.

وعندما همَّت بالخروج، ضَمَّ أصابع كَفَّه إلى بعضِها وأشار بِها كي تتمهَّل، وما لبث أن مدَّ يَده إلى درجٍ آخر، وأخرجَ حلَقَين مِن الذهب، وقال: بلّغي سلامي لجارتك سَكينة، وخذي لها هذين الحَلَقين هدية الجمعية لابنتَيها.

تناوَلَتهما قائلةً: إي يا مُلّا.

بعودَتِها، وقبل أن تذهب إلى البَيت، عَرَجَت إلى بيت جارتها، رنَّت جرس الباب، وعندما فتحت، دخلت على الفور قائلةً: عطشانة بدي كاسة مَي يا سَكينة.

جَلَبت سَكينة لها كأساً مِن الماء، فرشفتها وقالَت: الماء وحده لا يكفي يا جارَتي، بدي قهوة كمان.

ضحكت سكينة وهي تنظر إليها: أمرك يا ترنيم خانم، طمنيني قبضتي الراتب؟

أومأت برأسها علامةً بالإيجاب، فقالَت سَكينة وهي متَّجهة إلى

المطبخ: لهيك وجهك متفتّح، بدنا حلوان.

قالَت: تكرمي.

بعـد قليلٍ خَرَجَت سَـكينة من المطبـخ حاملةً ركوة القهـوة مع ثلاثة فناجـين، وعلى الفَور صَبَّت فنجاناً وأخذَتـه إلى حموها في غرفته، وعندما عادَت كانَت ترنيم قد ملأت الفنجانَين، والبخار يعلو منهما.

بجلوسِها، قالَت لها ترنيم: اغمضي عينيكِ يا جارتي العزيزة.

قالَت: لَشو؟

قالَت: اغمضي.

فأغمَضَـت عينيهـا، وبعد لحظاتٍ طلبـت منها أن تفتحهـما. عندذاك دُهِشَت سكينة وهي تُبحلق في الحَلَقَين في علبتيهما وقد فتحتهما ترنيم.

وقبـل أن تقـول شـيئاً، سَـبَقَتها ترنيم وقالَـت: المُلّا يبلغك السـلام، وأرسل للبنتَين هديّة الجمعيَّة.

سَـلَّمه الله وعافـاه، هـذا الرجـل كريـم. قالَتها سَـكينة وهـي تتناوَل الحَلَقَين وتنظر إليهما.

حينـذاك نهضَـت ترنيم وهي تقول: عـن إذنك يا جـارة، الوَلَد قَرَّب يرجَع مِن المدرسة.

قالَت: شو رح تطبخين اليوم؟

قالَت: والله اليوم بها المناسـبة، رح آخذ نص دجاجة مشويَّة، وأنتِ يا عزيزتي؟

قالَت: معكرونة.

بخـروج جارتهـا، صـارت تنظـر إلى الحَلَقَين وهـي تلمسـهما بيدَيها،

وعـادت بها الذاكِرة بغتـةً عندما ولدت ابنتها الأولى شـادن، وقدَّمَت لها عَمَّتها حلقاً صغيراً مِن الذهب، لكن بعد شـهرَين اضطرَّت أن تخلعه من أذنَي ابنتها وتعطيه لسـلوان كي يبيعه حتى يُسـدد المبلغ الذي اقترضه مِن كاميران الذي يسـتثمر مطعم المدرسـة، حتى يعطي للقابِلة التي أتَت إلى البَيت وولّدَتها.

وعندما ولدت ابنتها الثانية تالا، لم يهدها أحد حَلَقاً، ومِن يومِها لبثت تحلم بأن يتحسَّن وضعهم الاقتصادي، وتشتري حَلَقَين لابنَتَيها. وبسبب زيـادة المصاريف، راح سـلوان يبحث عن عملٍ إضـافيٍ حتى وَجَدَ عملاً كمحاسـبٍ في مطعم بالدوام المسائي الذي يبدأ من الخامسة مساءً وحتى الثانية عشرة ليلاً.

وبعد سـتة شهورٍ مِن عمله الإضافي، استطاعَت سَكينة أن توفّر مبلغاً وتشتري به حَلَقَين لابنَتَيها، وغدت أوضاعهم الاقتصادية تتحسَّن بعض الـشيء، خاصـةً وأنَّه كان يـأتي من المطعـم كل يوم ببعـض الطعام الذي يكفـي غـداء اليوم التالي. لكنّه بعد سـنةٍ مِـن العَمَل لم يسـتطع أن يُكمل بسبب الإرهاق الذي بدأ يُعانيه.

عند ذاك ترك عَمَله في المطعم ليكتفي بوظيفته في المدرسة.

وبعـد عـدَّة شـهورٍ تَعَرَّضَ أبـوه لِمَـرضٍ، ولم يكن يملـك حتى قيمة معاينة الطَبيب، فأعطَته سكينة الحَلَقَين كي يبيعهما.

عندمـا دَخَلَـت ابنتاهـا البيت وقـد عادتا مِن المدرسـة، كـم تمنَّت أن تُفرحهـما بهـذه المفاجأة السـارة، لكنَّها تردَّدَت، ودسَـتهما على مضض في جيب جلبابِها.

اغرَورَقَت عيناها بالدموع وهي تتّجه إلى المطبخ، وهناك صارت تنتحب وتُعدّ الغداء.

ليتكِ لم تجلبي الحَلَقَين يا ترنيم. همهَمَت بهذه العِبارة وهي تمسح دموعها، ثم استأنَفَت: ليتني لم أذهب معك إلى الجمعية.

في المساء، قالَت لزوجِها وهي تُبرز له الحَلَقَين: اليوم راحت جارتنا ترنيم للجمعية وقبضت راتبها، المُلّا بعث معها حَلَقَين مشان شادن، وتالا.

ألقى بنظرة إلى الحَلَقَين في يدِها، ولم يتكلَّم.

قالَت: إيش أعمل يا سلوان؟

لم يُجِبها بشيء، وعندما طال به الصَّمت، وضعتهما في الدرج بجانب ظرف النقود. ثم استَلقَت على الإسفنجة وهي تُغالِب نوَب البكاء.

بعد قليلٍ نهض سلوان وراح يجلس على طرف إسفنجتها، مدَّ يده وصار يُداعِب شعرها، وهو يسمع نشِيجها الخافت.

أدار رأسها إليه فرأى الدّموع تنهمر مِن عينيها.

مسحَ دُموعها وهو يقول بغصَّةٍ: أعرفُ أنّي مقصّر في المَعيشة، بس مو طالع بإيدي أكثر من هيك.

قالَت: إذا الجمعية الخَيريّة بدها تساعدنا ليش عم نرفض، المُلّا ما عم يعطي لحدا شي من جيبه.

قال: نحن ممكن نعيش بحدود إمكاناتنا من غير ما نحتاج للمُساعدات.

ضَمَّها إلى صدره، فابتسَمَت قائلةً: مثل ما بدك حبيبي.

امتدَّت يده إلى نهدَيها، فقالَت: مو هلّا يا سلوان، بالليل.

نط بسرعةٍ وأقفل الباب قائِلاً: هلّا وكمان بالليل.

وعـاد يتمـدَّد بجانِبهـا وقـد خلـع سرواله، وصـار يقع عـلى وجهها بقبلاتِ ساخِنة ويضمَّها إليه.

تمتم وهو في غمرة النّشوة: أنا هلّا أغنى رجل في العالم.

قالَـت وهـي تُداعِب شـعره: الله يديم عليك الصحّـة والعافية يا تاج رأسي.

* * *

عندما فَرمَلَت سيارة المُلّا بِمُحاذاة رصيف جمعيَّتِه، تقدَّم إليه حَشدُ النّساء اللّواتي كُنَّ واقفاتٍ في الشّارع ينتظرنه.

وبنزوله، تقدَّمَتْ بعض النّسوة وصِرنَ يُقبِّلنَ يدَيه، ثمّ أخَذَت الأصوات تتعالى:

-: تقبَّل الله منكَ الحجّ والعُمرة يا مُلّا.

-: الحمد لله على سلامتك ورجعتك لنا.

-: كثَّرَ الله مِن أمثالِك يا مُلا

-: مدينتنا بخير ما دُمتَ فيها يا مُلّا

-: أنتَ ملاذ اليتامى والفقراء

-: كانت مدينتنا بارِدة، وهلّا رجع لها الدفء، كانت بلا روح، وهلّا رجعت لها الروح.

رأى المُلّا نفسه مُحاصَراً بين الحَشد، وعند ذاك تقدَّمَ أدهَم، وتقدَّمَت مديرة المكتب، وصارا يُبعدان النّسوة، حتّى استطاع المُلّا بالكاد أن يدخل مكتبه.

بعد قليلٍ، أمَرَ المُلّا بتوزيع هدايا الجمعية على النّسوة، فخَرَجَت مديرة المكتب إلى الشّارع، وطلبت من النّسوة أن يقفن في طابور، وقالَت: بدنا نوزّع على كل واحدة دجاجة مجمَّدة، وظَرف مصاري بمناسبة رجوع المُلّا مِن الحجّ والعُمرة بالسّلامة.

في هـذا الوَقـت وبينما كان المُلّا ينظر إلى النّسـوة، ويُراقِب التّوزيع من خـلال الكاميرا، خَطَرَ له كيف أنَّه لم يعدْ يعرف قيمة النقود، فيصرف بِلا طائل، وأنَّه بات يملك شـعوراً بالاحتِقار للناس، ولا يسـتطيع أن يحترم أحداً، أو يحب أحداً، وأينما كان، يداهمهُ شعورٌ بالانتِقاص نحو الناس.

حتّى وهو في المسجد، عندما يُصلّي يشعر بأنَّه أفضل مِن جميع المُصلِّين، وأنَّهـم جميعاً بحاجـةٍ إليه، وهو الوحيد الذي لا يحتاج أحداً، لكنَّه مضطرٌّ للصَّلاة في المسجد حتى يراه الناس، وحتى في البَيت يضطرُّ للصَّلاة حتى لا يظهر أمام زوجته وأبنائه بأنَّه تاركٌ صَلاة.

لذلـك البارِحة وهو يسـتعدُّ مع رواء للذهـاب إلى المطار والعودة من لندن، قال: شـهر ارتحتُ فيه مِن الصّلاة، والمسـاجِد، واللفِّ والدّوران، هون عم أعيش على طبيعتي، رح أرجع للروتين المُمل.

تذكَّـرَت كلامه قبل عدَّة أيـام وهما يتناولان العشـاء في جناح المطعم الفرنسي التابـع لفندق الخمس نجوم اللذين يُقيمان فيه: ما بعرف ليش يا رواء أحس إني راجع لمدينة أشباح.

حدَّقَـت فيـه وهـي تسـتمع إليـه بإنصـات، امتـدَّت يـدُه إلى زجاجة الويسـكي، وملأت الكأس التـي كانت قد فرغت، وترامـى صوتُه: هُنا يـا رواء لا أشـعر بأنَّني أفضل مِن أحـد، ولا أنتَقِصُ مِن شـأن أحد، كلّ شيءٍ يبـدو على طبيعته بالنّسـبة لي هُنا، لأنَّني طبيعي بالنسـبة لكل شيء. هُنا أعرف قيمة النّقود، وأستمتع بالطعام والشّراب.

ثم قهقه بغتةً وقال: حتّى الجنس أستمتع به هُنا أكثر.

طـال به الشُّرود وهو لا يـزال يجلس خلفَ مكتبِه، إذ ذاك تناهى رنين

هاتفه ليكسرَ الصّمت الذي كان خَيَّمَ عليه، وعندما فتح الخط، اندَفَع إلى سَمعه صوت أدهم: رح أجي لعندك بعد شوي يا مُلّا إذا ما عندك شغل.

-: تعال. قالها وأغلق الخط على الفَور.

بعد قليلٍ دخل أدهم قائلاً له إنَّه منذ مُدَّة انقَطَع عن أحاديثه الدَعويَّة، وهذا سيترك أثراً على سُمعةِ الجمعيَّة إذا استمرَّ في الانقطاع: عملنا يتكامَل مع بعضه البعض يا مُلّا، وأي تقصيرٍ يمكن أن يتحوَّل إلى شرارةٍ تأكل الجمعيَّة كلّها، علينا أن نكون حَذرين ونُحافِظ على ما نحنُ فيه.

قال: ما عم يطلع معي شيء يا أدهم.

مَدَّ أدهم إليه ظرفاً وقال: استعنتُ بأحد أصدقائي المختصّين، وجلبتُ لك هذه الأحاديث، ومِن هُناك رتَّبتُ لك بعض المواعيد في الإذاعة والتلفزيون حتى تظهر للناس.

أنتَ لستَ مؤسّس جمعية يا مُلّا، أنتَ داعية أيضاً، والناس يقصدونك حتى تُفتي فيهم، وتُفسّر لهم أحلامَهم، وتُعالِج مرضاهُم بالطبّ النبوي، وتُسمَّي مواليدَهم، وتكون إماماً في بعض المناسبات التي تتواجَد فيها.

ثمّ بعد صمتٍ قصيرٍ أردف: بعض الحُسّاد يحاولون الإساءة إلى سُمعتك يا مُلّا، وعلينا أن نقف بالمِرصاد لهم. وللأسف إحدى زوجاتك السّابقات، تقف خلف بعض هذه الإشاعات.

قال وقد احمَرَّت وجنتاه: مَن؟

قال: تارا.

-: تفو، قحبة، ما يكفيها أنّها أخذت كيلو ذهب. قالها المُلّا وقد انتصبَ واقِفاً على قدمَيه.

-: برأسك يا مُلّا عندما سمعت، لم أرتح حتى ذهبتُ إليها.

-: إي..

-: قالت إنّ لديها تسجيلات صوتية ومقاطع فيديو لك وأنتَ معها، وستُخبر حرمك أم شبل بكل شيء، وبعد ذلك تنشرها في الانترنت.

خبَّط المُلّا بكفِه على الطاولة بقوَّةٍ قائلاً: والحل؟

-: قالت إنَّها تُريد بيتاً وسيّارة.

خَيَّمَ عليهما سكونٌ، وعند ذاك أشار إليه المُلّا بكفَه كي يخرج. فخرَجَ أدهَم كما لو أنَّه طُرِد، وقد ارتسمَت علامة تعجّبٍ على سحنته.

وبعد قليلٍ رنَّ جرس المُنبِّه وطلب مِن مديرة المكتب ألّا تُدخِل عليه أحداً.

لحظتذاك هَمهمَ المُلّا في سِرّه: ابنة الكلب ستخرب بيتي إذا أخبرَت أم شبل، وأبوها شرّير، ويده طائِلة، سوف يُغلق لي الجمعيّة، ويُعيدني منبوذاً في المجتمع.

واستعادَت ذاكِرته كلامها عندما نشب خلافٌ بينهما: أبي الذي صنعك يا أرسلان، قادر أن يُعيدكَ إلى أسوأ مِمَّا كُنت.

امتدَّت يدُه إلى الهاتِف، وهو لا يزال شارِداً، وعندما ترامى إلى سمعه صوتُ رواء: أهلاً وسهلاً يا مُلّا.

قال على عَجَل: اعملي حسابك اليوم أسهر عندك.

-: أمرك يا حبيبي، رح أحط الولدين عند أمي حتى تأخذ راحتك.

لبث المُلّا في شرودِه العَميق حتى سمع صوت الباب، ودخَلت عليه مُديرةُ المكتب تُخبِره بأن الدوام قد انتهى، وسوف تذهب إلى البَيت.

هـزَّ رأسـه دون أن يقـول شـيئاً، فخرجَـت وهي مسـتغربة مـن بقائه لوحده هذا الوقت الطويل.

بعد خروجِها بقليل، أحسَّ برغبةٍ للبقاء وحده في الجمعيَّة حتى المساء ويُفكّر بإيجادِ حلٍّ لِما تُريد تارا أن تفعله. فأخبر زوجته أم شبل بأنَّه مضطر للسَفر إلى إحدى الضواحي بشأن عمل الجمعيَّة، وسينام الليلة هناك.

اسـتمرَّ المُلّا في تفكيره، وفي المسـاء نهض مُتَّجِهـاً إلى بيتِ رواء، طَرق البـاب، ففتَحَت رواء، وعندما دخل المُـلّا، فُزِعَت وهي تراه مُحتَقِناً بتلك الدرجة العالية، ولم يسبق لها أن رأته بهذا الحجم من الاحتقان. ضَمَّته إلى حضنِها وتَمتَمَت بِهَلَع: خير يا مُلّا، أقلقتني عليك؟!

لم ينبِسْ ببنتِ شفَة، وبعد قليلٍ مِن الصّمت الذي خَيَّمَ عليهما، تراجَعَ المُـلّا، وراح ينـزعُ ثيابه، وخَطَت رواء نحو خزانـة الثّياب، وأحضَرَت له جلبابـاً. ثـم اتَّجَهَت إلى المطبـخ، وبعد قليل عـادت حاملةً إليه كأسـاً من عصير البرتقال.

كان جالِساً ومستغرِقاً بالتّفكير وهو ينظر إلى الأرض، حَطَّت الكأس أمامه، وبَرَكَت إلى جانِبه وهي تُحدّق في وجهِه بعُمق.

بعـد نحو ربع سـاعةٍ مِن السّـكون، مَدَّ يـده إلى كأسِ العصير وتناوَلَ رشـفةً، إذ ذاك أخرجَـتْ رواء عُلبة دخّانها وأشـعَلَت سـيجارة، وغَدَتْ تنفث الدُخان في الأجواء.

ثُمّ بوغِتَت به وهو يمدّ يده إلى علبة دخانِها ويسحب سيجارة ويضعها بين شفتَيه، فابتَسَمَت رواء ودَنَت بالقِدّاحة تُشعلها له، وهي تعلم بأنَّه لا يُدخّن إلاّ نادِراً.

قالَت: طمّني يا مُلّا.. قَطَّعتَ قلبي؟

رفع عَينَيه إليها وقال: أحتاج مساعدتك يا زوجتي الغالية.

قالَت: تعرف يا مُلّا رواء ما تقصّر معك بأي شيء تقدر عليه.

قال: لهيك ما رحت لعند أحد غيرك.

لِبثا ساهِرَين حتّى الصّباح، وعند ذاك خَرَج المُلّا مُتَّجِهاً إلى البيت، وهو يقول: بانتظار الأخبار السّارة.

قالَت: ولا يهمَّك يا مُلّا، رح أنفّذ الخُطَّة مثلَما اتَّفَقنا.

بعد نحوِ ساعة، خَرَجَت رواء صوبَ بيتِ تارا حسب العنوان الذي أعطاهُ لها المُلّا.

لَبثت تجوبُ الشّارع الطّويل، وتجلس في موقفِ باص النّقل الداخلي، تدخل بعض المحال حتى بلغت السّاعة الثّانية بعد الظُّهر دون أن تراها.

حينذاك أجرَت اتِّصالاً بالمُلّا وأخبَرَته بِما حَصل، وما الذي عليها أن تفعله. فطلبَ منها أن تذهبَ إلى البيت، وتعودَ العصر إلى ذاتِ المكان.

-: أمرك يا مُلّا. قالَتها واتَّجَهَت على الفور إلى بيتِ أهلِها، أخَذَت الطفلَين إلى البيت، وعند الموعد تَركتهما وخَرَجَت تنتظِر، وبَغتةً رأتها تَخرجُ من البيت، خفقَ قلبها خفقاتٍ سريعة، وأخرَجَت الهاتف تنظرُ إلى صورتها لتتحقَّق أكثر: هي.

قالَتها، وأعادَت الهاتِفَ إلى حقيبتِها اليدويَّةِ الصَغيرة.

تَقدَّمَت تارا إلى موقف باص النقل الداخلي وجلسَت على الكرسي تنتظر، عندَ ذاك ابتَعَدَت عنها بعض الشيء حتّى جاء الباص، وصعَدَت خلفها.

ثـم نَزَلَت في الموقـفِ الذي نَزَلَت فيـه حتّى رأتها تدخلُ عيـادة طبيبةِ أسنان، فلَحِقَتها، ورأتها تتقدَّمُ إلى الممرّضة، تحدَّثَت معها قليلاً، وجلَسَت في غرفةِ الانتظار.

تَقدَّمَت هي الأخرى إلى المُمرِّضة وسـجَّلَت على دورٍ باسـم مُستعار، وجلسَت بجانِبها.

بعد قليلٍ قالَت لها: سمعتُ بأنّ هذه الطبيبة شاطرة.

التفَتَت إليها تارا وقالَت: هاي أوَّل مرَّة تجين لهون؟

قالَت: إي.

قالـت: أنـا هاي ثـاني مرَّة، رح تفحصـك اليوم وبعديـن رح تعطيك الموعد، أنا بعد ربع ساعة يكون موعدي.

قالَت: أنت موظَّفة؟

قالَت: لا، عم أدوّر على شغل، وأنتِ؟

قالَت: كوافيرة، وكمان عم أدوّر على واحدة تشتغل معي وتساعدني.

قالَت: إذا بدّك أنا جاهزة.

قالَت: في عندك خبرة؟

قالَت: تقريباً ما شي الحال، ورح أتعلَّم مع الوقت إذا اشتغلت معك، كنت أحلم إنو يكون عندي محل، بس المحلّات غالية والإيجارات غالية، وكمان عدّة الكوافيرة بتكلّف.

وأردفَـت بعد قليل: أنا كنت متزوّجـة وانفصَلَت، كان عندي ذهب، بعتو واشـتريت لأخي الدكّان اللي كان يشـتغل فيه في الصِناعة، هو معلّم ميكانيك، هلّا ما بقي عندي شي.

في تلـك اللّحظـات نـادَت الممرِّضـة باسـمِها، فنهضَت وهـي تقول مبتسِمة: استنّي حتى أرجع.

أومأت رأسـها بالإيجاب، ولبثَت تنظر إليهـا مِن الخَلف حتى دخَلَت غرفـة الطبيبة، فنهَضَـت إذ ذاك وصارَت تمشي نحو الخـارِج، وبعد قليلٍ عـادَت تجلـسُ عـلى ذات الكرسِي وبين حـينٍ وآخـر تُرمق بـاب الطبيبة حتـى انفتَحَ وخَرَجت رواء، وعلى الفَور رأتها تتَّجه إليها تجلس على ذات الكرسي بجوارِها قائلةً: إي حبيبتي أنا جاهزة للشغل معك.

قاطعها صـوت الممرِّضة وهي تُنادي: سَـديم. فأدرَكَت بأنَّه اسـمها المُستعار، ونَهَضَـت، فقالَت لها تارا: رح أستناكي، هو كشـف سريع ما رح يتأخَّر.

نهضَـت رواء وتَقدَّمَت نحو غرفـة الطّبيبة بشيءٍ من الإرباك، وعندما دخَلَت، قالَت على الفَور بعد أن القَت عليها السّلام: دكتورة بدي تعملي فحص على أسناني.

دعَتهـا للجلـوس وصـارت تجـري الفحـص عـلى أسـنانِها، وعندما انتهـت قالَت لها: أسـنانك لا بأس بهـا عزيزتي، قلّلي مـا أمكن من تناول الأشياء القاسية، لا تحرمي نفسك منها، لكن لتكن بشكل متقطّع خاصة المُكـسَرات التـي تكون قاسـية. وحافظي عـلى لثَّتك أكثـر لأنَ بها بعض الخدوش، ويمكن أن تُسـبِّب لك مشـكلة مع الوقت، حـاولي أن تتناولي الحمضيات بين فترة وأخرى واستخدمي فرشاة أسنان ناعِمة.

عندمـا خَرَجَـت رأتْ تـارا بانتظارِهـا، فتقدَّمَت إليهـا، فنهضَت تارا وهي تقول: طمنيني سديم شو قالت الدكتورة.

-: حالياً ما بدّي علاج، بس قالت لازم أهتم بأسناني ولثتي أكثر.

-: تمام ارتحتي من جلسات العِلاج. قالَتها وطَلَبَت منها رقم الهاتف كي تتواصَل معها.

أخرَجَت هاتفها الثّاني الذي اشترَته البارِحة بناءً على توصيَّة المُلّا، وحذّرها بألّا تتواصل به مع أحد سِوى تارا.

قالت: أعطِني رقمك حتى أدُقّ لك ويظهر رقمي عندك حتّى ما يحصل خطأ.

عند السّاعة الحادية عشرة من صَبيحةِ اليوم التّالي، اتَّصَلَت بِها تارا وقالَت إنَّها تُريد أن تزورها في المحل.

قالَت إنَّها مُنشغلةٌ اليوم بتجهيز عروس، والصّالون مليء بالنّاس، وطَلَبَت أن تتصّل بها نحو العصر.

في تلك اللّحظات، أجرَت اتّصالاً مع المُلّا وأخبرَته كي يكون اليوم على أُهبّةِ الاستعداد، ثمّ أغلقت الخَط دون أن تضيفَ كلمةً واحدة.

لبثَ المُلّا في حالةِ استنفار، وهو ينتظرُ ما الذي سيحصُل، وطَلَبَ مِن مديرة المكتب ألّا تُدخل عليه أحداً مهما كانَ السَّبَب، حتى يختلِيَ بِنَفسِه مِن جِهة، ولا يرتبطَ مع أحدٍ مِن جِهةٍ أُخرى.

عندما سمعَت رواء أذان العَصر، حملت الهاتفَ الجديد الذي لا رقم فيه سوى رقم تارا، وصارت تمضي مِن غرفة إلى أخرى في بيتِها وبين لحظةٍ وأُخرى تلقي نظرةً إلى الهاتف مُنتظرةً أن يُصدِرَ رنيناً.

بعد نحو نصفِ ساعةٍ، رنَّ الهاتِفُ في كَفِّها، وبفتح الخَط انبَعَثَ صوتُ تارا: كيفك سَديم أنا هلّا رح أجي لعندك عالصّالون، بدي العنوان.

قالَـت: حكيتـي بوقتك حبيبتي كنت ناسـية، أنـا هلّا بسـيّارة أُجرة، رايحة عالبيت أتغدى، وبعد شي نص سـاعة راجعة، شو رأيك تجين معي وبعدين نرجع مع بعض حتّى تشوفي الصالون؟

قالَت: أتشرف حبيبتي. وأعطَتها العنوان الذي ستكونُ واقِفة فيه.

عنـدذاك اتَّصَلـت مع المُـلّا وطلبت أن يـأتِي إلى بيتِهـا في أقصى سُرعة بالهيئة المتَّفَق عليها.

حمـلَ المُـلّا حقيبةً وخرج مِن الجمعيّة مُسرعاً نحو سـيارة الأجرة التي اسـتعارها مِن أحدِ معارِفه، اسـتبدلَ ثيابه على عجـل داخِلها، ثم ارتدى قبَّعةً ونظَّارة سوداء، ووضع كمَّامةً على أنفه وفمه، ومضى على الفَور.

بوصوله، فتَحَت رواء الباب، وصعدَت وهي تملي عليه العنوان، مضى المُـلّا مسرِعـاً، وعندما وقعـتْ عيناه على تـارا، وقفَ بمحـاذاة الرّصيف الذي تقفُ عليه، حينذاك نادتها رواء من نافِذة السيارة: تعالي حبيبتي.

عنـد صعودِهـا، أحسَّ المُـلّا بظَفَر، وقاد السـيارةَ صـوب بيت رواء، وقبـل الوصول، فتحت رواء حقيبتهـا وأخرجَت ورقةً نقديّة، قالَت تارا وهي تمدّ يدها إلى حقيبتها: دعيني أدفع حبيبتي.

قالَت: لا حبيبتي تسلمي، أنت ضيفتي.

وعلى الفور مدَّت الورقة إلى السائق الذي مدَّ كفَّه إلى الخلف وتناولها دون أن ينبس ببِنتِ شَفة. وبعد قليلٍ مدَّ ذات اليَد وأعادَ لها البقيَّة.

عندما نَزلَتا، مضى المُلّا بالسـيّارة منتظِراً أن تـرنَّ رواء على هاتفه رنيناً واحِداً وتغلق الخط كي يعود.

وبعد نحو ربعِ سـاعةٍ جاء الرّنين المُرتَقَـب، فعاد المُلّا، وبدخوله باب

البيـت الـذي كان مفتوحاً، خَرَجَـت رواء متَّجهةً إلى بيـتِ أهلِها بعد أن أعطته الهاتف الجديد.

أقفل المُلّا الباب، وهَجَمَ بغتةً على تارا، وصار يقع على أنحاء جسدِها بشراسةٍ بيدَيه وقدَمَيه حتّى استَسلَمَتْ تحت الضّرَبات.

عنـد ذاك، نزع القبَّعـة والنظّارة، ثم رفع الكمّامـة، فصوَّبَت إليه نظرةً دَهِشةً وقالَت: أنت..؟!

قال: إي أنا يا حقيرة

قالَت وجسدها كلّه يرتَجف: اتركني يا مُلّا ما بدي منك شي.

خلعَ ثيابه ووقع عليها، قالَت وهي تُقاومه: يا مُلّا أنت طلّقتني.

صفعَها بقوَّةٍ ثمّ قال وقد تمكَّنَ مِنها: نشَّـفتي ريقي بتهديداتك يا بنت الحرام.

بعـد أن انتهى، قذفَ كفَّه بقـوّةٍ على فمِها وأنفِها وضغَـطَ عليها بكفِّه الأُخرى حتى فقدت آخر أنفاسِها.

سـحبَ هاتفهـا مِـن حقيبتِهـا، ووضعـه في جيبـه إلى جانـب الهاتف الجديـد، وانتظر حتى خيَّمَ اللّيل، عندها خرج يتفحَّصُ الشّـارع، ثم عاد يحملها إلى السيارة الواقِفة بِمُحاذاة الباب الخارجي للبيت.

بعـد يومَين انتشر خبرُ العثور على امـرأةٍ في وادٍ خارِج المدينة تم قتلها خنقاً.

عندمـا سـمع المُـلّا الخبر مـن التلفـاز وكان جالِسـاً في البيـت، همهم بسخريَّةٍ في سِرِّه: خافوا على سمعتها ما قالوا اغتُصِبَت.

ثـم نهضَ يمشي إلى غرفةٍ أخرى وأردف: هـذه هي عقيدَتي في الحياة،

إمّـا أن أقتـل، أو أُقتَل، إمّا أن أفترس، أو أُفتَرَس، أكذب، أو يُكذَب علَي، أسرِق، أو أُسرَق، أزني، أو يُزنـى بي، إمّـا أن أحتـال، أو يُحتال علي. نحنُ نعيشُ في غابةٍ بشريَّةٍ كبيرة، فيها وحوشٌ بشريَّةٌ أشرَسُ من جميع وحوشِ الأرض. أمّا ذاك الذي يأتي ويعطيني ماله كي أعطِي للفقراء، هو شخص مُغفَّل بامتياز، ولكن لا بُدَّ أن أشـجّعَ هـؤلاء، لأنَّهم هم الذين صَنَعوني، ولولاهم، لَمَا كُنتْ.

* * *

في صبـاح اليوم التّالي، تأخَّرَ المُلّا بالمجيء إلى الجمعيَّة، وكانَت زوجته قد ذهَبَت باكِراً لِزيارةِ أهلها، عند ذاك اتَّصَلَت به مُديرة مكتبه لتعرف إن كان سـيأتي أم لا، وذلـك عندمـا تكاثَرَت أعداد النّسـوة، وهي تقول إنّ المُلاّ مُنشغل حالياً، وعليهن الانتظار. لكنّه لم يردّ رَغم تكرار الاتّصال.

وعندما بلغت السّـاعةُ الحادية عشرة، اسـتفاقَ المُلّا مـن نومه، تناول قطعة جبن مع ملعقة عسل، واتَّجه على الفور إلى الجمعية.

ومـا أن نزلَ من سـيّارته أمام بـاب الجمعيَّة، حتى تَقدَّمَـت إليه امرأة ومعهـا طفل وقالَت: منذ شـهرَين وأنـا أتردّد إلى الجمعية حتى تسـجّلوا اسـمي، جلبتُ كل الثبوتيّـات المطلوبة، وأعطيتها لـك باليَد في مكتبك. ومنـذ ذلـك اليوم كلّـما أريد أن أدخل عليك لأسـتفسر عن سـبب تأخّر اسـمي للراتب الشـهري، تمنعنـي مديرة مكتبـك، وتقـول إن الموافقة ما جاءت من الإدارة.

تعالى صوتٌ نسـوي: لو كنتي جميلة لقبضتي الراتب من بداية الشـهر الأوّل لتقديمك الطَلَب.

مـضى المُلّا نحو المكتب، فلحقه صوتٌ نسـويٌ آخـر: وفي نفس اليوم استلمتي ظرف النقود.

وبـدأت الأصوات تتعالى وتتداخَل وتُلاحق أسـماع المُلّا حتى توارى عن أنظارِهن ماضياً إلى مكتبه.

بعد جلوسه بقليل، دخَلَتْ إليه المُديرة قائلة: صباح الخير يا مُلّا.
أجاب: صباح النور.
قالَت: ولا يهمك يا مُلّا، نساء مدسوسات مِن حُسادِك.
قال: هزَّ رأسه، فأردَفَت: انشغلنا عليك يا مُلّا، تأخرت ولم تُخبِرنا.
قال: أخذتني نومة، وكان الهاتف عالصّامِت.
قالت: أنتَ جاهز؟
قال: إي.
قالت وهي تخرج: الله يقويك.
بعد قليلٍ دخلَتْ امرأة خمسينيّة وقالَت إنَّها تُعاني مِن آلامٍ في رأسِها. فوضع المُلّا كفَّه على رأسِها وبدا يُتمتِم قليلاً، ثم أعطاها حبةَ تمر، وعبوة ماء، وهو يقول: تمر الحجاز، وماء زمزم.
أعطَته المرأة ورقة نقدية وهي تقول: أنا فقيرة، وهذه صدقة صغيرة حطها بيد يتيم يا مُلّا.
أخذها المُلّا وهو يقول: تقبَّل الله منك، وإن شاء الله ستشفين، ارتاحي ولا تفكّري.
بخروجِها دخَلَت امرأة ثلاثينيّة وقالَت: زوجي لا يُصلّي يا مُلّا، ماذا أفعل؟
قال: لا يُصلّي وهو مُسلم، العِياذُ بالله، لا يجوزُ لك أن تبقي على ذِمَّته، أُحذّركِ من الاستمرار في الزّنا معه.
قالت: زنا يا مُلّا؟!
قال: إي زنا، لأنَّه كافِر، والمُسلمة مُحرَّمة على الكافِر، أنا أعلِّمكِ دينكِ

جيداً يا أختي، هل تعلمي بأن الزِّنا مع شخص مسلم يُصلّي هو أخف مِن الزِنا مع كافِر، ذنبك كبير، سارعي بالتّوبة إلى الله، لأنكِ لم تكوني تعلمي، والآن علمتي. إيّاكِ إيّاكِ والبقاءَ معهُ في بيتٍ واحد.

قالَت: لكن يا مُلّا لي منه أربعة أولاد.

قال: لا تُؤاخذيني يا أختي، الحقيقة مُرَّة، لكن لا بدّ أن أقولها لك وأبرئ ذمَّتي تجاه ربّي، هؤلاء هم أبناءُ زِنا. تخلَّصي منه بأيّ طريقة واتركي له الأولاد، وسيُعوضكِ الله بخيرٍ منه وخيرٍ منهم.

ثم مدَّ يده إلى درجٍ وأخرج ظرفاً، وأعطاه لها وهو يقول: لا تأخذي منه شيئاً، هذا مبلغ دبّري أمورك به، وأنا مُتكفّلٌ بكلّ نفقاتك حتى يرزقك الله زوجاً صالِحاً.

عند خروجِها، دخلَ أدهم وقال: شفت يا مُلّا، لما تظهر في وسائل الإعلام النّاس ينهالون على الجمعيَّة مثل النّمل. كَثُرتْ الجمعِيّات هذه الفترة، وكأنّ النّاسَ لا عملَ لهم سوى فتح جمعيات، إضافةً إلى بعضِ أئمةِ المساجد الذين يجمعونَ الأموال من المُصلّين ويقولون بأنَّهم سيوصلونَها إلى المُحتاجين، والنّاس يثقون بهم ويعطونَهم.

قال: معكَ حقٌّ يا أدهم، لا بُدَّ أن نصلَ إلى النّاس أينما كانوا.

قال: هذا مُهم لعملِنا يا مُلّا حتّى نكسبَ شعبيَّة، وهذه الشعبيَّة تُسانِدنا حتى عند السّلطات، لأنَّها ستأخذها بعين الاعتبار عند أيّ إجراء، الدّنيا دوّارة يا مُلّا والأمور تتقلَّب.

تسرَّبَ اصفرارٌ إلى وجهه كما لو أنَّه جَفَل، امتدَّتْ يده إلى عُبوةِ الماء، ورشفَ جرعة، فاستأنفَ أدهم: خطرتْ لي فكرةٌ جديدة جئتُ

لأستشيركَ بها يا مُلّا.

هزَّ المُلّا رأسه وهو يُنصِتُ إليه، فقال: نذهبُ إلى بعضِ الدّكاكين في بعضِ الأحياء الفقيرةِ بينَ فترةٍ وأخرى، ونُسدّدُ كلّ الدّيون المُسجلة في دفاترِهم عن الأهالي.

قال: فكرةٌ رائعة يا أدهم، اختر لنا حيّاً، وغداً سنذهبُ أنا وأنت ونأخذُ معنا المصوّر حتى يصوّر مقطع فيديو وينشره في قنواتِنا.

في اليومِ التّالي، ظهر المُلّا في القنوات التّابعة له على الانترنت، ينزل من سيارته، ويتّجه إلى إحدى الدّكاكين، يطلب من صاحِب الدّكانِ أن يجمعَ الديون المُسجّلة في دفترهِ ويقول: اليوم لدينا بِشارة سارّة لأهالي هذا الحَيّ، صحيح نحن جمعيّةٌ خاصَّة باليتامى، لكن عندما تزيد عندنا الأموال، نُفرّقها على المُحتاجين ولا نترك منها شيئاً.

عند ذاك أخبرهُ صاحبُ الدُّكان بمجموع المبلغ، فأخذ المُلّا الدّفتر، وأخرج قدّاحةً، وصار يحرق الدّفتر، ثم ناوله المبلغ، وهو يوجّه كلامه إلى أهالي الحي بألّا يدفع أحد دَيناً للدّكان حتى هذه الساعة، مهما كان الدَّينُ كبيراً أو صغيراً، جديداً أو قديماً.

* * *

قلَّبَ المُلّا صفحات الدّفتر وهو ينظر إلى الأسماء التي يكون اليوم دورها لقبض الراتب، وعندما وقع نظره على اسم ترنيم، حدَّقَ في الاسم ملياً وتخيَّل بأنَّه ينظر إليها، ارتسَمَت أمام عينَيه قَسماتُ وجهها في حروف الاسم.

وبغتةً قَفَزَت صورة سَكينة إلى مخيِّلَته، وصار يسترجع حديثَها وملامِحَ وجهها، يومَ ذاك راودَتهُ رغبةٌ جامِحةٌ نحوها، وعندما رفضت الظّرف أوَّل الأمر، أحسَّ بالإهانة، ولذلك أصرَّ أن يعطيها الظّرف، وكذلك أصرَّ أن يرسل لها الحَلَقَين بعد ذلك.

قطعتْ طرقاتٌ على الباب شُرودَهُ ودخلت امرأتان، وبجلوسِهما قالَتْ إحداهُما إنَّها رأت حلماً وجاءت إليه كي تُفسّره لها، فغدا يصغي إليها حتى انتهتْ، عند ذاك صار يتحدَّثُ معها عن الحُلم، ثم راحَ يضعُ كفّهُ على رأسِها ويقرأ شيئاً من القرآن بصوتٍ مُرتفعٍ، وأوصاها أن تستحِمّ بشكلٍ يومي لمدَّة أسبوع.

قالت الأخرى إنَّها منذ نحو شهرٍ لا تستطيع أن تنام وتبقى قلِقة حتّى الفجر، فطلبَ منها أن تقرأ القرآن قبل أن تأوِي إلى الفِراش.

قالَتْ إنَّها لا تُجيدُ القراءة. فطلبَ مِنها أن تتوضّأ وتحملَ المُصحف، وتُمرّر سبابتَها على الكلِمات. عند ذاك شَكَرَتاهُ وقدَّمت له كل واحدة مبلغاً كي يعطيه للمُحتاجين.

بِخروجِهما دخَلَت ترنيم، فرحَّبَ بِها، ودعاها للجلوسِ وصارَ يسـألُ عن أحوالِها، وعن ابنها أشـهب، وكيف تقضِي أوقاتها، وهلْ هي مُواظِبةٌ على الصّلاة: الصّلاة هيَ الشّرطُ الأوَّلُ لكلِّ مَن تنتسِب لجُمعيَّتِنا.

قالَتْ: الحمد لله أنا وابني أشهب لا تفوتنا صلاة.

قـال: أشـهب الكبير إنسـان صالـح، وإن شـاء الله يقتدي به أشـهب الصغير.

قالت: أربّيه على الصلاح يا مُلّا.

هزَّ رأسـه، وبعد قليلٍ من الصَمت سـألها عن أحوال جارتها، فقالَت أنّ زوجهـا منـذ عشرة أيـام وبينما كان ذاهِباً إلى المدرسـة، صدمته سـيارةٌ مجهولة، دونَ أن يعرفوا صاحِبها، ووضعهُ الصِحّي صَعب، وهو لا يزالُ في العِنايةِ المُشدَّدة في المشفى.

في المسـاء، سـمعَت سَـكينة طرقـات عـلى البـاب، وعندمـا فَتَحَت، تَفاجأت بالمُلّا مع رجلٍ وامرأتَين.

قـال المُلّا عـلى الفور: نحنُ من الجَمعية الخيريَّة جِئنا نسـألُ عن صِحّة سلوان بعدَ الحادث.

رحَّبَـت بهم وهي تدعوهم إلى الدّخول، وعند ما شـارفوا على دخول الغرفة، استقبَلَهم أبوه وهو يُرحِّب بِهم.

بعدَ جلوسِـهم بقليل قال المُلّا: كنا نريد أن نذهبَ لزيارتِه في المشفى، لكـن قِيلَ لنا أنَّهُ في العِنايةِ المُشـدَّدة. نحنُ في هـذه المدينة عائلةٌ واحِدةٌ إنْ شـاءَ الله، وجمعيَّتنـا الخيريَّـة تُقدّم المُسـاعدات بقدرِ الإمـكان للنّاس عند

الطـوارئ، وهذهِ أموال أهـل الخير ولا شيء لنا فيها، نحنُ فقط وُسـطاءٌ لوجهِ الله تعالى، ونسأل الله القبول.

قال أَبوه: وفّقكُم اللهُ لعملِ الخَيرِ وتقبَّلَ منكم.

أخـرجَ المُلّا ظرفـاً وأعطاهُ لهُ قائِلاً: هذه مُسـاهمةٌ من أهـلِ الخير لكُم حتّى يفرجها الله.

أخذها أبوهُ وهو يشكره.

قـال المُـلّا: إذا احتَجتُم نَفقـات، تَواصلُـوا معنا، ولنْ نُقـصّر بحدودِ الإمـكان. ثـمّ تأهَّـبَ للنّهـوضِ وهـو يقـول: نرجـو أن تأذَنوا لنـا لأنّنا سنذهب إلى بيوتٍ أخرى هذه اللّيلة.

شَـكراهُم عـلى الزِّيارة وعلى المُسـاعَدة وخرجا معهـم إلى الباب وهما يدعيان لهم بالتّوفيق.

بعودتهـما إلى الغُرفـة، مـدَّ الأبُ يـدهُ إلى الظّرف وفَتحه، وصـارَ يعدّ النُّقود، وعندما فرغَ منها، نظر إلى سَـكينة وقال: عندما يطلع سلوان مِن العِناية المُشدَّدة، سنأخذه إلى مشفى خاص، النّقود تكفي.

هزَّتْ رأسـها بالإيجاب وهي تتذكَّر نقود المرَّةِ السّابِقة التي لا تزالُ في الدرج، مع الحَلَقَين. ولم تمدّ يدها لتأخُذَ مِنها شيئاً رَغمَ الحاجةِ الشَّديدة.

بعـد قليلٍ سـحبَ الرّجل مبلغاً وخرج من البيت، أمضى نحو سـاعةٍ وعـاد وهو يحمل كيسـاً كبـيراً يحتوي على بعض المونـة للبيت، إلى جانب بعض الفاكِهة والخُضار والحلويات.

ثـم أخرج كيسـاً وهو يقول: والله يا بنتي رائحـة الكباب أكلتني، منذ نحو سنة لم يدخل اللّحم الأحمر إلى بيتنا. وأخَذَ يفتح الكيس ليكشف عن

الكباب السّاخِن مع السَلَطة، ونادى حَفيدَتَيه ليأكلوا جميعاً وجبةَ العشاء المُمَيَّزة. وعندما فرغوا، جلبَت سكينة الحَلويات والفاكِهة.

قال الرجل وهو يقشّر حبة برتقال: كثَّر الله أولادَ الحلال الذين يُفكّرون بغيرِهم.

الظّروفُ صارتْ صعبةً يا بنَتي، راتبُ سلوان لا يكفينا، ولا يوجد لدينا أي مصدَر آخر للمعيشة.

* * *

في صبيحة عيد الفطر، انتشر خبرٌ كالصاعِقة بين الناس عن رجل قَتَلَ زوجَته في بيت أهلِها مع أبوَيها، وأربعة من أخوتها، وضيفَين كانا في معايدَتِهم.

عند ذاك اتَّصل المحامي بكّار مع المُلاّ وأبلَغه الخَبَر، وطَلَب منه أن يخرج فوراً مِن البيت ولا يُخبر أحداً بمكانه تحسّباً لأي طارئ.

ارتبكَ المُلّا، وتشتَّتَت به الأفكار، وهو يمد يده إلى ثياب الخروج.

عندما رأته زوجَته يرتدي الثياب بشكلٍ عشوائيٍ على عَجَل، قالَت وهي ترنو إلى وجهه الذي بدا مُصفرَّاً كليمونة: إلى أين يا مُلاّ .. نحن في صبيحة عيد؟!

رَمَقَها بعينَين وجِلتَين، ولم يفه بحرف. عند ذاك رنَّ هاتِفه، فهبطَ قلبه بشدَّة حتى أنَّه لم يعد قادِراً على الوقوف، وخارَ جالِساً في موضِعه.

لبث الهاتف يرنّ، وقلبه يهبط، جسده يرتعدّ، ونظرات زوجته تحدجه بذهول.

توقَّفَ الهاتف عن الرنين، ولكنه بعد لحظاتٍ عاد يرنّ، فامتدَّت يده المُرتَعِشة إلى جيبه حيث الهاتف الذي لايزال يرنّ، أخرَجَه كما لو أنّه يُخرِج لغماً موقوتاً على وشك الانفجار، وما لبثَ أن صوَّبَ نظرةً إلى شاشة الهاتف ليرى اسم المُحامي.

فَتَحَ الخط بسرعةٍ لتندفع نبرات المحامي مُنَخَفِضةً إلى مسمعه، وهو

يطلب منه بألاَ يركب سيَّارَته، ويتركها بجانب البَيت، ويركب سيارة أجرة، وأن يفصل هاتفه تماماً، ولا يفتحه مهما كانَت الأسباب.

ثم أعطاه عنوان شقَّة، وطلب منه أن يأتي عند الساعة الثانية عشرة منتصف ليل يوم الغد إليها، ويراه هناك. وعلى الفور أغلق الخط دون أن يضيف كلمة واحدة.

نَهَضَ المَلّا بالكَاد وزوجته تُصوّب إليه نظراتِها، وقد بهتت: ما الذي حصل يا أرسلان.. قل لي أنا زوجتك.

قالتها وهو يستديرُ ماضِياً شطرَ الباب. لفت بنطالُه المُبلَّل نَظَرَها، فلحقته نبراتُها الراعِشة: غيِّر بنطالك يا أرسلان.

توقَّفَت به خطواتُه، وألقى نظرةً إلى البنطال ليراه مُبلَّلاً، وفي لحظةٍ نَظَرا معاً إلى الموضع الذي كان جالِساً فيه، فرأيا بقعة مُبلَّلة، حينها ازداد قلقُها، وانتابها إحساسٌ مفزعٌ بأن أمراً خطيراً ما قد حَصَل إلى درجة أنَّه بال في ثيابه، وكذلك شعر بحَرَج إضافةً إلى الإرباك الذي استبدَّ به، وهو ينظر إلى البقعة ويتلمَّس البِنطال. فاتَّجَه إلى الغُرفة، وسارَعَت زوجته بإحضار شورت وبنطالٍ له.

عندما خلع الشورت الذي كان يرتديه، فاحَت رائِحة كريهة ملأت الغرفة، لكن زوجته سارَعَت وسحبت الشورت من يده ودَسَّته بين البنطال الذي خَلَعه في محاولةٍ لتخفيف الحَرَج عنه، وطلبت إليه أن يدخل الحَمَّام ويغتسل من آثار البول والبراز. بَيد أنَّه لم يفعل، فارتدى الشورت، والبنطال بسرعةٍ، وتهَروَلَت به خطواتُه نحو الخارِج يلحقه صوت زوجته دون أن يلتفت إليها.

مضى في الشـارع مسرِعاً وهو يتوقَّع أن تُفرمل إحدى سيارات الشرطة بغتة بجانبه، ويتم إلقاء القبض عليه.

وعندها صار يدس جسـده في الشـوارع الفرعية حتى ابتعَدَ عن البيت وبـدأت نظراتـه تمتـدّ باحثةً عـن سـيارة أجرة، لكـن طال ذلـك، وبعض السـيارات تمـضي في الطريـق، لكنَّهـا محمَّلـة بالـركاب، وبعد نحو سـاعةٍ توقَّفَت سـيارة أجرة بعد أن أشـار إليها بالوقـوف، ففتح الباب على عجل وركب، وقبل أن يُخبر السـائق بالجِهة التي يريدها، قال السـائق وهو ينظر إليه مبتسِـماً: أهلاً وسهلاً مُلّا أرسـلان، تشرَّفَت سيارتي بأنَّك ركبتها، هذا يوم تاريخي لن أنساه يا مُلّا. قالَت لي زوجتي: لا تخرج، اليوم عيد.

قلت لها: أشعر بأنني لا بدَّ أن أخرج، كم أنا محظوظ يا مُلّا، وأنتَ قاعد في سيارَتي وبجانبي.

جمـد المُلّا ولم يعد يعرف ما الذي سـيفعل، وكيـف يتصرَّف، وقد أدرك بأن هذا الشـخص سيعرف المكان الذي سـيكون فيه، ويمكن له أن يرشد الشرطة إذا انتشر خبر هروبه، وبذات الوقت ما أراد أن ينزل على الفور كي لا يثير شبهة، فأومأ إليه أن يمضي في الطريق.

مضى الرجل وبعد قليل رنَّ هاتفه، وعندما فتح الخَط، جاء صوت أحد معارفـه وهو يطلب منه أن يذهب إليه، فاعتـذر وهو يقول: لا تُصدّق مَن معي في السيارة الآن.

قال: مَن معك؟

قال: احزر

قال: والله لا أعرف

قال: مُلّا أرسلان

قال: أنتَ تمزح، مُلّا أرسلان ما غيره

قال: إي والله هو بذاته، وأنا مثلك لا أصدّق

قال: ممكن شخص يشبهه ويريد أن يحتال عليك.

حينها طلب المُلّا منه أن يقف ويُنزله، فأغلق الهاتف على الفور قائِلاً: هل بدر مني شيء أزعلَك يا مُلّا؟

قال: لا، هذا هو المكان الذي أريد.

ومدَّ يده إلى جيبه ليكتشف بأنه لم يحمل نقوداً، لكن الرجل أقسم بأنَّه لن يأخذ منه الأجرة. فنزل وهو يشكره، وبعد قليلٍ أشار لسيارة أخرى ذاهِباً إلى بيت أدهم.

عندما وصلت السيارة إلى البيت، طلب من السائق أن ينتظر قليلاً ريثما يعود، وسارع نحو البيت، لكن زوجة أدهم قالَت إنَّه خرج لمعايدة بعض الجوار. وعندما طال به الوقوف ولم تدعه للدخول، قال: أنا مُلّا أرسلان.

دُهِشَت المرأة وهي تعتذر منه وتدعوه للدخول قائلةً: لا تؤاخذني يا مُلّا، ما عرفتك، هذه أول مرة أراك فيها، لم تشرّفنا في البيت من قبل.

دخل المُلّا وطلب منها أن تعطي أجرة السيارة لأحد أبنائها كي يأخذها للسائق الذي ينتظر، لأنَّه نسي أن يحمل معه النقود.

بعد نحو نصف ساعة من جلوسه وتقديم ضيافة العيد له، دخل أدهم وتفاجأ به، ثم راح يأخذه بالحضن شاكِراً إيّاه على الزيارة.

فقال إنّه سيبقى عنده حتى ليل يوم الغد، ولا يريد لأحدٍ أن يعلم بوجوده هنا.

قال: تكرم يا مُلّا، لكن أقلقتَني خير إن شاء الله؟

قال: لا تقلق يا أدهم أنا بخير.

أدخلـه أدهــم إلى غرفـةٍ وقال: هذه غرفتـك يا مُلّا، خـذ راحتك، وإذا لزمك شيء اتَّصل بي في الهاتف، وسأكون عندك.

قال: جيد يا أدهم، لكن هاتفي مغلق، ولا يلزمني شيء.

قال وهو يتركه في الغرفة: سـأبقى في البيت يا مُلّا، حتى أكون بالقرب منك في حال احتجتني.

في المساء جلب أدهم له العشاء، وبعد ذلك أدخل فرشةً إلى الغرفة كي ينام عليها.

تمـدَّدَ المُلّا على الفرشـة، بَيدَ أنَّ فكره لبث مُنشـغِلاً، كـما أن وجهه لبث مُحتقِنـاً، وتقافَـزَت صـورة لينـا إلى مُخَيلتـه، وكيـف أن زوجها اسـتطاع أن يرتكب تلك المجزرة بحقِها وحقِّ أهلِها، وفي لحظاتٍ تخيَّل أن زوجها كان يمكـن له أن يرتكب تلك المجزرة بحقّـه وحق زوجته وأولاده، وهمهم في سرّه: نعم يا أرسلان لو عَلِم زوجُها بالعِلاقة التي بينك وبينَ زوجته، لهجم عليـكَ في البيت وقضى عليكَ وعلى زوجتك وأولادك. الرجل اسـتشرِس ولم يعد يتحكَّم بنفسه.

مسـح بكفّه على جبهَته واسـتأنَف شروده: تُرى هـل عَلِم بعلاقتي مع زوجتـه، وإذا عَلِم ربَّما يُحرّض أحد أخوته أو أقربائه ليرتكب مجزرة بحقّي وحق عائِلتي. وصار يرتعد تحت الغَطاء وهو يتقلَّب يمنةً ويسرا.

ومـع تجاوز الليـل مُنتّصفه، جهمته نوبة غثيـان، فانتفَض من الفراش، وجـرع بعـض المـاء، لكـن الغثيـان لم يهـدأ. وضع كفَّـه على بطنـه، وصار

يضغط، ثم انبعثَ منه صوتٌ: أدهم.. أدهم.

وبعدّ قليلٍ نادى مرةً أخرى: أدهم.. يا أدهم.

فدخل أدهم على عجل ورآه يضغط على بطنه ووجهه الشاحِب يتفصَّد بالعَرَق، فقال وأسنانه تصطكّ من كثر الارتجاف: أشعر بغثيان حادّ يا أدهم، يكاد الغثيان يقتلني.

أعطاه كاساً من الماء، ثم خرج، وبعد قليلٍ عاد يحمل له كاساً من القرفة.

جلس المُلّا في فِراشه وصار يرتشف القِرفة، وبعد نحو نصف ساعةٍ، خرج أدهم عندما رآه يتمدَّد على الفِراش.

أغمَضَ عينَيه، ولكن صورة لينا عادَت إلى مُخيّلته، فهاهي تدخل إلى مكتبه بمُفردِها وهي تبكي، وها هو ينهض من خلف مكتبه، يمسك بيدِها ويُجلِسها على الكرسي، ثم يفتح لها عبوة ماء، ويسقيها بيده.

قالَت بنبراتٍ كسيرةٍ: جئتُ إليك لتُساعدني يا مُلّا، وأنتَ تقدر على ما لا يقدر عليه غيرك في هذه المدينة.

جلس على كرسي بجوارِها، ثم مدَّ يده يمسح من عينَيها الدموع وقال: لن أقصّر معك، أنتِ الآن دخيلة في مكتبي.

قالَت: وضعنا المادّي سيِّء، وزوجي يبيع البوشار في الأحياء على البسكليت، وعندنا أربع بنات، الكُبرى في العاشرة، والصُغرى في الثانية من عمرها. ونحن يا مُلّا نعيش في بيت بالأجرة، وتراكَمَت علينا أجور أربعة أشهر، ولا نستطيع أن ندفعها، وصاحب البيت اشتكى علينا ويريد أن يُخرِجنا من البيت.

قال: مادام هذا الرجل عاجز عن تقديم الاحتياجات الأساسيَّة

لعائلته، أفضل حل أن تتركيه، والله يعوّضك بأحسن منه.

بهتت المرأة وهي تنظر إليه وقالَت: كيف يا مُلّا، والبنات؟!

قال: لا أحد يستطيع أن يأخذ منك بناتك يا لينا خاتون.

ناولها ظرفاً وقال: دبّري أمورك بهذا المبلغ، وإذا قررتي الطلاق، خبّريني، واتركي البقيَّة علي.

انصرفَت المرأة وعادت بعد نحو شهرَين وأخبرَته بأنَّها تشاجَرَت مع زوجِها، وهي تريد الطلاق.

عند ذاك اتَّصل المُلّا بالمحامي بكّار وطلب إليه أن يترك كل شيء ويأتي حالاً إلى الجمعيَّة.

وعند حضوره، قال له المُلّا إنَّه يُريد أن يُطلّق هذه المرأة من زوجِها.

ابتسم المحامي وقال: أمرك يا مُلّا، اعتبِرها مُطلَّقة.

بعد عشرة أيام وبينما كان تالد يقود دراجته في حي شعبي وهو يبيع البوشار، نادته امرأة لتشتري البوشار، وعندما أحضر لها ما أرادَت، طلبت منه أن يدخل ويضع البوشار على الطاولة في الداخل بسبب عدم نظافة يدَيها كونها وضعت كيس القمامة للتو في العلبة أمام الباب.

دخل تالد ووضع البوشار على الطاولة، فطلبت منه المرأة أن ينتظر حتى تجلب له النقود.

في تلك اللحظات، أقفلت عليه الباب ومزَّقَت شيئاً من ثيابِها، ثم خرجت تصرخ في الشارع قائلةً بأن بائع البوشار تهجَّمَ عليها عندما دخلت البيت لتُحضر له قيمة البوشار، وأنَّها أغلقت الباب عليه حتى لا يهرب.

بعد نحو نصف ساعةٍ جاءت دورية من الشرطة، وأخذته ليتم الحكم عليه بسنتَين في السجن.

عند ذاك وعلى عَجَل، اتَّصلَ المُحامي مع المُلّا، وقال إنّه سيأتيه على الفَور ومعه خبرٌ سارٌّ إن كان موجوداً في الجمعية. فقال المُلّا أنَّه موجود وبانتظارِه، فانطلَقَ المُحامي يقود سيَّارته بسرعةٍ صوب الجمعيَّة، وبوصوله أوقفها خلف سيَّارة المُلّا، ونزل يخطو نحو المكتب دون أن يمر على المُديرة. طرق الباب ودخل، فنهض المُلّا من خلف مكتبه وهو يُرحّب به بحرارةٍ، تَقدَّم المُحامي إليه واحتَضنه وتبادل معه القُبلات.

وقبل أن يجلس، قال: أُبشّركَ يا مُلّا البَطل انحكم سنتَين وهو الآن موجود في السجن.

قهقه المُلّا بَغتةً وقال: خبر جميل، لو كان الأمر بيدي لطلَّقتُ كل امرأة جميلة من رجلٍ لا يعرف قيمة جمالها.

في تلك اللّحظات أحسَّ المُلّا بأن عضوه بدأ ينتصب رويداً رويداً، وهو يشعر بالنشوة مع الانتصاب حتى أصبح في أوج انتصابِه. فتمطمطَ وقال: هذه وردة يا بكّار وليسَت امرأة.

ثم ما لبثَ أن مَدَّ يَده إلى حزمة نقودٍ في الدرج، وأعطاه المبلغ الذي طَلَبه عن أتعابِه، فتناول بكّار المبلغ ودسَّه في حقيبَته. وبعد قليلٍ عدَّ المُلّا مثل المبلغ المطلوب وأعطاه قائِلاً: وهذا المبلغ هديَّة شطارتك يا بكّار.

مدَّ بكّار يده وتناول المبلغ وسُرعان ما دسَّه هو الآخر في حقيبَته وقال: يا مُلّا أنا لا أقبل غير الدعاوى المضمونة، وما سبق لي أن خسرتُ دعوى واحدة.

قـال المُلاّ: يظهر أن مـا يقولوا بأنَّه قانون مناهضة العنف ضد المرأة فتح لكم باباً للرزق.

قال: ليس باباً واحداً يا مُلاّ، فتح أبواباً، مكاتب المحامين صارت تمتلئ بالنساء، والدعاوى تزداد. حتى المحامين الفاشلين صاروا يشتغلون.

هـذه طريقـة جديدة للعمل يا مُلّا، قبل هذا القانون ما كنا نرى النسـاء في مكاتـب المحامـين، ولا في مخافر الشرطة، أو المحاكـم، كان من العار أن تدخل المرأة إلى تلك الأماكن.

ثم ضحك وأردف بلهجةٍ ساخرة: قانون مناهضة العنف ضد المرأة.

قليلـة هـي الدعـاوى التي يـمارس فيهـا الرجـل العنف عـلى زوجته، وعـلى الأغلـب تمارس المـرأة العنف على نفسـها حتى تحصل عـلى ما تريد مـن الرجل من خـلال هذا القانون، هـي تحتال على هـذا القانون، وتحتال عـلى الذين يعملون في هذا القانون، وهم يسـتجيبون لها. وغالبية المحامين يُسعّرون النساء للتصعيد، لأن الصلح لا يكون لمصلحتهم.

منـذ أيـام زرتُ أحد زملائـي المحامين في مكتبـه، ورأيتُ عنـده امرأة أوكلَته في شكوى على زوجِها.

عندمـا خرجـت المرأة، لم أملـك نفسي وسـألته: لا أظن أن هـذه المرأة فلتت منك.

ضحك وقال: وهل كانت ستفلت منك إذا أوكلتك.

قلت: لا، صارحني كم موكّلة جامعت حتى الآن؟

قال: أصارحك بشرط أن تصارحني أنت أيضاً

قلت: موافق.

قـال: عملـت حتـى الآن في مئـة وخمس وسـتين دعـوى خاصـة بهذا القانون، ضاجعتُ فيها ثمانين امرأة من موكّلاتي، وعشرين امرأة بين أخت الموكّلة، أو مَن تأتي معها من قريباتِها، أو معارفها.

قلـت: أنا عملت في مئتين وعشر دعاوى بهـذا القانون، ضاجعتُ فيها تسعين امرأة موكّلة، وخمسين مرافِقة.

ضحك المُلّا وقال: إيّاك أن تقترب من نسائي يا أستاذ.

قال: لا يا مُلّا، عندي ما يكفيني، وتعرف بأنني سـبق أن أرسـلت لك ست نساء جميلات.

قال: صحيح، وأنا أعطيتك ما طلبت على كل واحدة.

ثم أردف يقول: أريد أن تسارع في تطليق لينا من زوجها.

قـال وقـد نهـض يسـتأذنه بالذهـاب: لا تقلق يـا مُـلّا، مثلما سَـجَنته، سأطلّقها منه.

أراد المُـلّا أن ينهض كي يودّعه، لكن عضوه المُنتصب حال دون ذلك، فسـارع بمدّ كفّـه وأنزل العضو عـن ارتفاع البنطال قليـلاً، ونهض نصف نهضةٍ، فابتسمَ المحامي وهو يخرج قائلاً: لا تتعب نفسك يا مُلّا.

بِخروجِه، وقـف المُلّا على قدَمَيه وصار ينظر إلى عضوه المنتصب الذي دفـع البنطـال نحـو الأمام بشـكلٍ ملفتٍ. ثم عـاد يجلس وهـو يتخيَّل لينا ويُتمتـم: كلّما أرى امرأةً جميلة أشـعر بأنّني أولى بِهـا مِن زوجِها، ولو كانَت لدي سُلطة، لانتزعتها منه بالقوّة.

* * *

في صبيحة يوم الغد تقدَّمَ المحامي إلى المحكمة الشرعيَّة بطلب طلاق لينا من زوجِها بسبب سوء أخلاقه، وحرصاً على سمعتِها وسمعة بناتِها، وكتب في العريضة بأنَّه رجل مشبوه، ويُشكّل خطراً على مستقبل بناتِه. وهاهو الآن، محكومٌ بالسجن لمدَّة سَنَتَين بسبب تحرّشه بإحدى النساء المُتزوّجات.

وبعد عدَّة جَلَسات استغرَقَت ستَّة شهور، قضت المحكمة بالطلاق، وبقاء الأولاد في عناية الأم بسبب عدم بلوغهم السن القانونيّة.

لبث تالد يمضي في السجن شارد الذهن كما لو أنَّه في حلم، فكيف حصل ذلك، ولماذا، لا يعرف. هكذا بين ليلةٍ وضُحاها تحوَّل من حرٍّ إلى سَجين، من رجلٍ عفيفٍ إلى متحرّش بأعراض الناس.

فما الذي سيقول لأبنائه، لأهله، لمعارفه. وها هي زوجته حصلت على الطلاق بعد أن أخبره بذلك المُحامي الذي أوكله أحد أخوته له.

ومضت عليه السَنَتان بكل ما فيهما من بؤس، وانتظار، وألم، هكذا كما دخل السجن، رأى نفسه يخرج منه ، كما أنّه دخل طقوس السجن، رأى نفسه يخرج منها. وكما أنَّه ذرف الدموع عندما دخل السجن، هاهو يذرفها عند خروجه.

همهم في نفسه وهو يمضي: أي خروجٍ يا تالد، وأين ستذهب، حتى زوجتك وأولادك راحوا، لِمن ستعيش وقد بقيتَ بِلا عائِلة.

وأخذته أدراجُه صوب البَيت، البَيت الذي حنَّ إليه، الحارة التي حَنَّ إليهـا. توقَّـفَ أمام الباب ولم يجرؤ على مدّ سـبابته ليضغـط على الجَرَس. فكيـف يدخل على امرأةٍ غريبةٍ عليه، امرأةٍ كانَت ذات يومٍ زوجته. وبأي قلبٍ سوف يُخرج بناته مِن البيت.

ثم اهتدى وهو لا يزال واقِفاً أمام الباب، بأن يطرق باب أحد جِوارِه، فاستقبله الجار، وقدَّمَ له الشاي، وبعد قليلٍ قدَّم له وجبة طعام.

وعندمـا أخبر الجار بأنَّه جاء كي يـرى بناتِه، طلب الرجل من زوجته بـأن تذهب وتـأتي بالبنات إلى أبيهم. خرجت المـرأة وراحت ترنّ جرس الباب دون أن يفتح أحد. فعادت وقال بأنَّهم خارج البَيت.

شـكر جاره على بادرته وودَّعَه متَّجِها إلى بيت أحد أخوَته، وفي اليوم التالي، راح صوب بيت تلك المرأة التي اتَّهَمَته بالتحرِّش وسَجَنَته، وسأل عنها بعض الجِوار، فقالوا بأنَّها تركت هذا البَيت الذي كانَ قد اسـتأجَرَته لِمدَّة شهرٍ واحدٍ فقط وخرجت منه، ولا يعرفوا شيئاً عن مسكنها الجديد.

هذه المعلومة جَعَلَته يشك في الأمر، وغدا يُجري تحرّيات حتى استطاع أن يعـرف بـأن زوجته كانت خلف تلك الحادثة كـي تحصل على الطلاق بسهولة.

صـار يتمتـم: لمـاذا يحصل كل هـذا، بذلـتُ كل جهدي حتـى تعيش عائِلَتي حياة كريمة.

في صبيحة العيد، ذهب إلى الحارة كي يرى بناته في بيت جارِه، ولكن زوجة الجار قالَت بأنّها مسـاءَ البارحة رأتها تخرج مع البنات، وقالَت إنَّها

ستقضي يومَ العيد مع البنات في بيت أهلِها.

عنـد ذاك اتَّجه إلى بيت أهلِها، وطلب منهـم أن يرى بناته. لكنَّه تفاجأ بأنَّهـم طـردوه، وقالـوا بأنَّهـم لن يسـمحوا لـه أن يُدنّس بيتهـم، فأخرج المسـدس الذي كان بحوزتـه، واقتحم الغرفة ليطلق النـار على مَن كانوا فيها.

لبـث المُلّا مضطرِباً حتى اليوم التالي وقبيل الموعد بقليل أوصله أدهم إلى المكان وعاد.

تقـدَّم المُـلّا إلى الشـقة بخطـواتٍ وئيدة، توقَّـفَ أمام البـاب، ثم رفع سـبابَته ورنَّ الجـرس، بعد لحظـاتٍ فتح له بـكّار البـاب وأدخله بسرعة قائِلاً: خذ راحتك يا مُلّا، أنا وحدي هنا، هذه الشقَّة اشترِيتُها للتجارة.

ثم أردف يقول: كنتُ أعد الساعات في البيت حتى يمضي الوقت، ما نمتُ لحظة واحدة.

قال المُلاّ: وأنا مثلك، طمّني يا أستاذ؟

قـال: كنتُ أحتـاج إلى الوقت الذي مضى بسـلام، ويمكنني أن أقول لك بأننا حالياً صرنا في أمان.

قال: هذا المجنون أفسد علينا العيد.

قـال: كنتُ أتوقَّع أن يقتلهـا، وراهنتُ أحد زملائي على مبلغ، لكن لم أتوقَّع أنه سيقتل كل هؤلاء الناس.

مـن بين كل الدعاوى التي اسـتلَمتها على الأغلـب كانت النهاية قتل المرأة بشـكل مبـاشَر، أو قتلها والادّعاء أنَّهـا قُتِلَت، أو انتَحَـرَت، أو أنَّها بالفعل تنتحر، لأنَّ الزوج إذا طلَّقَها سـيضع نفسـه تحت ابتزازِها خاصة

إذا كان له أبناء، سيوفّر لها المسكن والمعيشة، وبنفس الوقت يرى الناس يدخلون بيته ولا يستطيع أن يمنعهم، ولا يعرف ما الذي سيحصل لأولاده مع هؤلاء، وأحياناً تتزوَّج المرأة خارج المحكمة بالسر ولفترات مُحدَّدة حتى لا تتوقَّف عنها النَفَقة، وأحياناً تتحوَّل المرأة إلى عاهِرة، وأحياناً تتزوَّج في المحكمة وتترك النفقة والأولاد، وتتفق مع زوجها الجَديد في اصطياد بعض المقتدرين، مثل أن يدخل عليهما فجأةً، ويطلب بعض النقود من المقتدر حتى يسكت، هذه الحالات أنا عشتها وعرفت أشخاصها.

* * *

جَفَلَـت رواء عندما اتّصـلَ بها المُلّا، وقال إنَّهُ سـيزورها في البيت بعد قليل.

أحسَّـت بنوبةِ غثيـان مُباغِتة وصارتْ تتمتم في سرِّهـا: هل يريدُ المُلّا أن يتخلَّـص منـي لأنّني الوحيـدةُ التي تعرفُ بجريمته.. كان يوماً أسـود يوم تعرَّفتُ عليه، ليتني لم أسـمعْ به، ولم أدخل جمعيَّته. حَرَمتني الظّروف مـن زوجي، وهو الآن يريـدُ أن يحرمني من حياتي كلّهـا، يتَّمَتْ الظُّروف الولدَيـن، وهـو الآن يريـد أن ييتمهُما مرّة أُخـرى. هذا الرّجـل هو لعنة، أفسَدني وأفسدَ علي حياتي.

كانت المرّة الأولى التي استدرجني فيها إلى الزّنا قبل أن يتزوَّجني، ما الذي ينويه الآن.

وراحَـت تخبّـط رأسـها في الحائِـط وهـي تقـول: كيـفَ اسـتطاع أن يسـتدرجني حتّـى أُسـاعده في قتـل تلكَ المِسـكينة، لمـاذا كنتُ بـكل ذاك الاندفاع، وأنا كنتُ أريد أن أُنهي حياةَ إنسانة، لماذا لم أفكّر.. لم أتردَّد.

عندما دخل المُلّا، انتابَتها نوبةُ هَلَع وقَد خارَت قِواها.

-: خير يا رواء.. خبّريني هل حصل شيء؟!

أدرَكَـت مـا رمى إليـه فقالَت وهي ترتجـف: اطمئن مـا حصل شيء، لكنّي تعبانة.

ثمّ أردَفَتْ وهي تنظرُ إلى سِمات العُبوس في وجهه: وأنتَ ما بك يا مُلَا؟

قـال: اليـوم اتَّصَلَت امرأة مع زوجتي أم شـبل وأخبرتها بـأنّي مُتَزوِّج من عدَّة نساء لاتعرفهن، ولكن تعرف واحدة وهي أنتِ وأعطَتها اسمك وعنوانك.

خَبَّطَت بكفِّها على صدرِها وقالَت: ماذا أفعلُ يا مُلا إذا جاءَت؟

قال: انكري واطرديها مِن البَيت، أهم شيء لا تكوني ليِّنة معها، ارفَعي صوتك في وجِهها، هي هكذا تُصبح جبانة إذا رأت شـخصاً عصبيّاً، وإذا رأتْ شـخصاً ليِّناَ، تتمادى عَليه، ادفعيها إلى الشّارع ولملمي الناس عليها، وقولي بأنك ستتّصلين بالشُّرطة لأنَّها تهجَّمَت عليكِ في البيت.

قالَـت وقد هـدأ روعُها بعضَ الشّيء: والله يا مُلّا أتعلَّم منك أشـياء لم أكن أعلَمُها مِن قَبل.

قال: هذه النّوعية مِن الناس أعرفها جيداً، وهذه الطّريقة هي الأفضل في التّعامـل معهـا، الـذي يأتي بالهـدوء، نكون معـه هادئـين، والذي يأتي بالعُنف نكون معه عنيفين حتّى لا نرضخَ لعُنفه علينا، لأنّنا سنكون جُبَناء أمامه وأمام أنفسِنا.

قالَت: تفضّل اجلس يا مُلّا.

قـال: لا أنا على عَجَل. وبعد قليلٍ مِـن الصَّمت أردَف: كنتُ منذ مدّة وعدتك بسيارة يا رواء.

قالَـت: إي، حينها تعلَّمتُ السـواقة، وأخرجتُ إجازة سَـوق، لكنّني نسيت الموضوع.

أخرَجَ مفتاحاً وقدَّمه لها وهو يقول: هذا مفتاح سيَارِتك يا غاليَتي.

قالَت: أنتَ تمزحُ يا مُلّا.

أمسكَ بيدِها وخَرَجا إلى حيث سيارة رصاصيَّة اللون واقِفة بُمحاذاة رصيف البَيت وقال: هذه هي سيارتكِ، جئتُ بِها وتركتُ سيارتي في الجمعيَّة.

قالَت: لو كنّا في البيت، ما تركتك هكذا، كنت حضنتك وملأت وجهك بالقبلات، أنتَ دائِماً تُفاجئني بهداياك السارّة يا حبيبي.

عند ذاك وقعت عيناه على سيارة أجرة قادِمة، فأشار لها وقال إنَّه لا بدَّ أن يذهب الآن.

عندما دَخَلَ المُلّا مكتبه، تفاجأ ولأوّل مرَّةٍ بوجودِ زوجَته أم شبل جالِسة خلف المَكتَب.

قال: خير يا أم شبل؟

قالَت بصوتٍ مرتفعٍ وقَد نَهَضَت مِن الكُرسي: عند أي زوجة مِن زوجاتك كنت يا عريس؟.

نطَّ إليها ووضعَ كفَّه على فَمِها: اسكتِي بلا فضائِح.

دَفَعَتْ يَدَه عَنها وقالَت: بعد اليوم سأداوم هُنا، أجيء معك، وأرجع معك.

قال: موافق.. اخفضي صوتك.

قالَتْ بذات النبرة العالية: سأرتّب العَمَل بطريقَتي.. وإلاّ سأحرق هذه الجمعيَّة يا أرسلان أفندي وأحرقكَ معها.

قال: الذي تريديه سيحصُل، لكن لا ترفَعي صوتك، الجمعيّة مليئة بالناس.

قالَت بلهجةٍ تصعيديَّة: مليئة بالنِّساء. ثم اردَفَت: هل تقبل أن أذهب

إلى رجلٍ في مكتبه ويختلي بي في المكتب.. ما تقبله على نساءِ الناس، عليك أن تقبله على امرأتك.

نَظَرَ إليها باحتقانٍ وبعد صمتٍ قال: كلُّ الجمعياتِ هكذا.

قالَت: لأنّ الذين يُديرونها هُم من أمثالِك، يحتالون على الأغنياء عن طريق الدِّين، ويستدرِجُون بِها النِّساء، لماذا فقط النّساء، هل المرأة تُعيل الرّجُل أم الرّجلُ يعيلها.

إذا كان صادِقاً في خدمة النّاس لوجه الله، لا يختلي بِها في مكتبه، ويشترط أن يكون معها رجل محرَّم.

والله إذا كان الأمر بيدي لأغلقتُ هذه الجمعيّات، لأنّها تخربُ البيوت، ولا تعمّرها، تُفتِّتُ العائِلات، ولا تجمعُها، تُحرّف النّساء، تستولي على حقوق الفقراء من الزَّكاة والصّدَقات.

رمى بجسدهِ على الكُرسي، وهو ينظرُ إلى الأرض وعباراتُها لا تزال تجلدُ سَمعه: يقولون جمعيات خيريَّة، أي خيرٍ فيها، هي جمعياتٌ تنشر الشرَّ بينَ الناس، وكل ما فيها شرٌّ في شرٍّ.

دَنَت إليه والكَلام يطفر مِن فمِها: ستغلق هذه الجمعيَّة يا أرسلان.

رفع رأسه وقال: لن أغلِقها.

قالَتْ: كم امرأةً تزوَّجت وكم امرأة طلَّقت، وماذا فعلت عن طريقِ هذه الجمعيَّة يا أرسلان؟

قال: لم أتزوَّج، ولم أطلّق، ولم أفعل شيئاً، الذين أخبروك يحسدونَنِي على نجاحي في الجمعيَّة، هُم أصحاب جمعيّات فاشِلة سلَّطوا عليك امرأة وصارَت تُخبرك بأوهام وأنتِ صدَّقتي أوهامها. لتقدّم إليك أدلّة إن كانَت

صادِقة.

قالَت: ألا تعرف رواء؟

قال: ما سمعت هذا الاسمِ من قبل

قالَت: زوجتك.

قال: هذه مِن الأكاذيب التي وصَلَتك.

قالَت: وصلني عنوانها.

قال: اذهبي إليها وتحقَّقي، لتعرفي أنّ زوجك بريء.

قالَت: إذا لا تريدُ أن تغلِقَ الجمعيَّة، ستخصّصُ لي مكتباً، ولن تدخل عليك امرأة قبل أن تحصلَ على موافَقَتي ويكون معها رجل محرَّم يدخل مكتبك معها.

قال: هذه أمنيَتي، ومنذ سنة أردتُ أن أطلب منك كي تُساعديني في الجمعية، حتّى تكوني قريبةً منّي، تعرفين كم أحبّك، وكم أُريدُ أن أراكِ بين ساعة وأخرى، قُربك منّي يجعلني أحسُّ بالرّاحة يا غاليتي. جلست على الكرسي الذي يليه وقالَت بنبرة خافِتةٍ: تعرف كم أحبّك يا أرسلان، ومستعدَّة أن أفعل أي شيء حتّى أحافظ عليك، فقدتُ أعصابي عندما سمعتُ بأنَّك تزوَّجت، هل تتخيَّل بأنَّك ذات يوم تتزوَّج امرأة أخرى وتنام معها مثلما تنام معي.

قال: لا يا حبيبتي ويا أم أولادي.

قالت: لو تبحث في كل الكرة الأرضيَّة لن تجد امرأة تحبك مثلي.

قال: ولا يهمّك أم شبل، اتَّصلي مع الأولاد ليكونوا جاهزين حتّى نذهب إلى البيت نأخذهم ونتغدى في المطعم.

ابتسَـمَت وقالَت وهي تُخرج هاتفها: من زمان ما اتغدينا مع بعض في مطعم، الجمعيَّة أخذتكَ منّا.

في المسـاء، زاره حموهُ أشـهب في البيت، وكانت ابنَته قَد أخبَرَته ما قيل لها عن تعدّد زوجاتِه.

قال: المرأة عاطفيّةٌ يا أرسلان، لا تلُمها إذا بدَرَ منها رد فعل وهي تسمعُ بأنّ زوجها قد تزوَّج عليها. احتملها يا بني، النّاس صاروا يتحدَّثون عنك كثيراً، وانا أقدّر هذا لأنّ الإنسان عندما يشتهر وينجح في عمل، يُصبح له خصُوم، يُريدون أن ينالوا منه.

صمتَ قليلاً ثم اسـتأنف يقول: إذا عكسـنا الأمـر، وكان زواج المرأة بأكثر مِن رجلٍ في وقتٍ واحدٍ بالحلال، ألا يشعر الزّوج الأوَّل بالغيرة على زوجَته، وهل يتقبَّل ببساطة شراكة الرجل الآخر له في زوجته. هل يكون بفرح وهو ينظر إلى الرّجل الثاني يمسك بيد زوجته ويأخذها إلى الفراش، بينما هو ينام بمفرده، وزوجته بالقرب منه مع زوجها الآخر، ولا يستطيع حتّى أن يناديها كي تأتي إليه.

إذا كنـت قـد تزوَّجت يـا أرسـلان، هذا مـن حقّك، لكـن احتمل أم أولادك، ومـع الوقت كل شيء يرجع لوضعه الطبيعي، غيرتها تكون على قدر محبَتها لك، وعصبيَّتها تكون على قدر تعلّقها بك.

* * *

توقّفَ المُلّا بسيارته أمام باب الجمعيّة، وهو يرمق حشدَ النّساء والرجال، حيث كل امرأة جَلبَت معها رجلاً محرَّماً.

قالَت أم شبل التي كانت تجلس بجانِبه: هذا منظر شرعي يسر القَلب ويغلق أفواه الذين يريدون الإساءة إليك يا أرسلان.

نظر إليها، ونزلا مِن السيارة.

دخل بوجوم إلى مكتبه، واتَّجَهَت إلى مكتبها، بعد لحظات دخل عليه مدير المكتب الذي استبدلَته أم شبل بالمديرة.

قَفَز كلامُها إليه: أنتَ رجل ومدير مكتبك رجل، هذا شرعي، المديرة تدخل عليك وأنتَ وحدك في المكتب يا مُلّا، وهذه خلوة لا يجيزها الشرع.

أحسَّ المُلا ببرود الجمعيَّة وأنَّها فقدَت حرارَتها بالنِسبة إليه، قال المدير: هل توجد أوامر قبل أن نُدخِل الناس إليك يا مُلّا؟

قال: بعد نصف ساعة أدخلهم يا همّام.. الأولويَّة للذين يدفعون، ثم الذين يريدون العلاج، أوالفتاوى، ثم استلام الرواتب، ثم التسجيلات الجديدة.

-: تكرم يا مُلّا.

بخروجه دسَّ المُلّا وجهه في راحتَي كفَّيه وهو يُحاول أن يتخلَّص مِن شعوره بأنَّه في سِجن.

عندما جاءت ترنيم لتقبض الراتب، فوجئَت بوجود رجلٍ مع كل

امـرأة، وحينهـا قالَت لها إحدى النِّسـاء: التعليمات الجَديـدة أن يأتي محرَّم مع المرأة.

هَزَّت رأسـها عائدة على الفور إلى دكّان ابن أخيها، وبعد نحو ساعتَين عادَت برفقته.

وكان المُلّا في انتظارِها حتى يسـألها عن سَكينة، بدخولِهما، أعطاها المُلّا الراتـب، فقالَـت: ابـن أخي أغلق دكّانـه حتى يأتي معـي، ألا يجوز أن آتي الشهر القادم بمفردي.

قال: حالياً هذه هي التعليمات يا أختنا.

همَّت بالخروج وهي تشكره، فقال: ما أخبار جاركم سلوان.

قالَت: نَقَله أبوه إلى مشفى خاص، لكن وضعه صعب، ما يزال يتلقّى العلاج في المشفى.

بخروجِهـما، لا يدري المُلّا لماذا مدَّ يدَه إلى دفترٍ، وصار ينظر إلى أسـماء زوجاتـه السّـابِقات، وتبـيَّن له أنّـه طلَّقَ حتى الآن خمسـاً وثلاثـين امرأة، ويحتفظ بأربعة.

ثم تبيَّن أنَّه جامَعَ عشرين امرأة دون زواج.

إذا ذاك قفـزَ إلى ذاكِرته الحديث الذي جرى بينه وبين جاره ناظر حينما كان في بِداية عهده بالعمل في مجال الدِّين.

قـال ناظر: كنـا أنا وأنتَ في صفّ واحد، ها أنـا أدخل كليَّة الطب، لو أكملتَ تعليمك، دخلتَ كلّية وأمَّنتَ مستقبلك.

قـال: مسـتقبلي سـيكون أفضل مـن مسـتقبلك، لأنني دخلـتُ ما هو أفضل من كلّيَّتك.

ضحك مستهزئاً وقال: أفضل من كلّيَّتي..؟!

قال: مستقبلي في الدِّين يا صديقي سيكون أفضل من مستقبلك.

ابتسم لهذا الحوار الذي كما لو أنَّه وقع بالأمس رَغم مرور السنوات الطويلة عليه، وخطر له أن يزوره في عيادته ليثبت له صحَّة كلامه السابق على أرض الواقع الآن.

في المساء، راح يسألُ عن عيادته حتّى وصلها، و طلب من ممرِّضته أن تُخبره بأنّ صديقاً قديماً يريد أن يراه.

آنذاك خرجَ الطّبيب من غرفة الكشف مُرتدياً صدريّته البيضاء، وعندما وقعت عيناه عليه، تقدَّم إليه وهو يقول: مُلّا أرسلان، صديقي القديم أهلاً وسهلاً بك، نوَّرتَ عيادَتي.

ثمّ أخذ بيدِه إلى الغرفة، وعندما دَخَل المُلّا، رأى رجلاً يرتدي بدلة رسميَّة مع ربطة عنق، يبدو كما لو أنَّه خَرَج مِن الحمّام للتَو.

قال الطبيب: هذا صديقي القاضي أركان.

ثم أشار إلى المُلّا قائلاً: وهذا صديقي وابن حارتي القديمة مُلّا أرسلان.

ضحك القاضي وقال: ومَن لا يعرف مُلّا أرسلان في هذه المدينة، عندما تضيق الأمور بالناس يقولون: نذهب إلى مُلّا أرسلان. ويقولون بأنَّكَ تعطي بسخاء.

ضحك أرسلان وقال: السخاء مقابل السخاء يا جناب القاضي، أهل الخَير يعطوننا بسخاء ونحن نوزّع على الناس بسخاء.

ثم أردف: أنا يا جناب القاضي لا آخذ لنفسي أي شيء مِن الذي يصلني، قلبي على المحتاجين.

قـال القاضي: أحد زملائـي القُضاة ذات يوم حكـى لي أن ابنته عندما مرضـت واحتاجـت للعـلاج في دولـة أجنبيَّـة، جاءتـك وطلبـت منـك المساعدة، فتكفَّلتَ بكل نفقات العِلاج والسفر.

قال: صحيح، نحن ننظر إلى الحالة الإنسانيَّة ونقرّر المُساعَدة.

طُرِقَ البابُ، ودخلت المُمَرِّضة تُخبر الطبيب بحضور أحد المرضى.

فأشار لها بأن تُدخِله، وقد نَهَضَ مِن الكُرسي.

عندمـا دَخَـلَ المريـض، طَلَـب إليـه الطبيـب أن يتمـدَّد عـلى السريـر المحجوب بستارة، ثم راح يفحصه.

قال القاضي: أنتَ معروف بمؤازرة النِسـاء يا مُلّا، وعندك شـعبيَّة مِن النساء.

قال: لأن النساء مظلومات في مجتمعنا يا أستاذ.

نَظَرَ إليه ملياً وقال: نعم يا مُلّا، يبدو أن كل شيء يُفاقِم عليها الظلم.

قال: كيف أستاذ؟

قـال: كان الظلم في السـابق عليها أخف، ومع القوانـين الجديدة التي أخذناها من الغرب ظُلِمَت أكثر.

ظهر الطبيب وراح يكتب وصفة للمريض الذي تبعه وتناول الوصفة شاكِراً إيَّاه وهو يخرج.

قـال الطبيـب الذي بدا إنَّه كان يسـتمع الكلام: هـذه القوانين أعطتها الحقوق، ورَفَعَت عنها القيود يا أبا أريج.

قـال القـاضي: كلامـك صحيـح يـا حكيـم إذا نظرنـا إلى ظاهِـر هذه القوانـين، لكـن عمليـاً وبكـوني أعمل في سـلك القضاء، أقول لـك بأنَّها

ألحَقَت بِها ضرراً فادِحاً.

سادَ صمتٌ ليس بالطويل، ثم استأنَفَ يقول:

قبل هذه القوانين لم نكن نجد المرأة تُراجِع دوائر القضاء إلاّ نادِراً، لكن الآن صارِت تُراجِع هذه الدوائِر أكثر مِن الرَجل، ونِسبة الطلاق ارتَفَعَت أضعاف المرّات، نسبة تفتيت العائِلات تضاعَفَت أضعاف المرّات.

الأسبوع الماضي كنتُ قاعِداً في مكتبي وأنا أستقبل طلبات الطَلاق حتى صرتُ أشك بأنني في مكتب خاص بالطلاق، وعندما دخَل علي شخص بطلب الزواج، دقّقتُ في الطلب ورفعتُ رأسي إلى الشخص: هل أنتَ متأكّد بأنك متقدّم بطلب زواج؟!

قال: نعم أستاذ.

وكان الطلب الوحيد للزواج في ذاك اليوم من بين ما يزيد عن عشر طلبات طلاق.

نحن أخذنا هذه القوانين بشكل عشوائي يا حكيم قبل أن نميِّز بين خصائص المُجتمعات.

تلك القوانين فُصِّلَت وفق السويَّة التي تعيشها تلك المجتمعات، والمرأة الأوربية مختلِفة عن المرأة في بِلادِنا.

والقوانين الوضعيَّة تتكامَل مع بعضِها في واقعٍ اجتماعي يكون مُتناسِباً معها، ونحن اجتزأنا قوانين المرأة من منظومة قوانينِهم وأقحمنا ها في أرضٍ لا تصلح لها، ومجتمع لا يصلح لها، وعلى منظومة قوانيننا التي تنفر منها.

لبث المُلّا والطبيب ينظران إليه وهما يستمعان بإنصات، مَدَ القاضي كفَّه إلى جيبه وأخرجَ علبة دخّانِه وأشعل سيجارة وهو يقول: المرأة

هُنـاك كانَـت مُهيَّـأة لتلك القوانـين، وبحكـم الواقع الـذي كانَت تعيش فيـه، كانَت تأخذ حقوقها الطبيعية دون أن تتجـاوَز، لكن هُنا وبحكم أن المـرأة تعيش في واقع اجتماعي مُختلف، وهذه القوانين أتاح لها الخروج عن الواقع الاجتماعي، صارَت تبدو كما لو أنَّها تنتقم مِن الرجل، لا أن تُطالِبه بِحقوقِها، وثمار الانتقام هي فاسِـدة مهما بـدا النضوج عليها، وبالتالي هي ثِمار قاتِلة للمرأة سواء بشكل سريع أو بشكل بطيء.

ومـا صار يَزيد مِن إلحـاق الضَرَر بالمرأة نتيجة هـذه القوانين، أن المرأة هي التـي أصبَحَت القاضية في هذه القوانين، وهي بطبيعَتِها تميل إلى المرأة وتتعاطَف معها.

بعد قليلٍ مِن الصَمت، ضحك القاضي وقال: منذ ستة شهور سمعتُ أن زميلـة قاضيـة قدَّمَت اسـتقالَتها. ومِن باب الفضـول أردتُ أن أعرف السبب، فذهبتُ مع زوجتي لزيارتِها في البيت.

وعندما سـألتها عن سـبب ذلك، قالَت أنّها خلال سنَتَين من عملها في القضاء الخاص بهذه القوانين، تبيَّن لها بأنَّها تسبَّبَت في طلاق مئتَين وستين امرأة، أي تشريد مئتَين وستّين عائِلة، وتسبَّبت في نشوب قِتال بين عشرين عائِلـة وكانَـت النتيجة مقتل ثمانيـة رجال، وامرأتَين. وخـلال هذه الفترة لم تجـد بأنَّهـا أصلحت عائِلـة واحدة بهذه القوانين، وقالَـت بإنّ ذلك كان يمكن بكل بسـاطة ألاّ يحدث، لكنَّها كانَت مُندَفِعة وهي تعتقد بأنَّها ترفع الظلم عَن المرأة.

قالـت: لكن ما أثَّر فيَّ ولا يمكن لي نسـيانه بـأي حال من الأحوال هو حضور رجل إلي وهو يقول: قتلتم زوجتي بيدي.

نظرتُ إليه ملياً وقلت: أنتَ طعنتَ زوجتك بالسكّين حتى قتلتها.

قال: لم أقتلها، أنتم وضعتم السكّين بيدي ودفعتموني لقتلِها، وكما أنا بريء، زوجتي بريئة، وأنتم القَتَلة.

قلت: أنتَ تهلوس يا رجل هل أنتَ سكران؟!

قال: لا، لم أكن في يومٍ بكامل وعيي كما أنا اليوم، كنتُ أعيش مع زوجتي وأولادي حياة هادئة وجميلة، حتى ذات يوم طرقت بعض النساء علينا الباب، وقالت واحدة لزوجتي بأن عهد قمع النساء ولّى، وقد أتينا بقانون مناهضة العنف ضد المرأة، ومدَّت امرأة أخرى لها بطاقة عليها رقم هاتف وقالت: فقط دقّي على هذا الرقم إذا ضايقك زوجك، أو أزعجك بأي شيء.

نحن ندور على كل بيوت المدينة ولا نترك أي بيت إلاّ وندخله لنبلغ النساء بهذا القانون الجديد.

بعد يومين وعندما رجعتُ من عملي، لم أجد الغداء، قلتُ لزوجتي: أين الغداء أنا جائع.

قالت وهي تحمل الهاتف: مثلك مثلي، اعمل أنتَ الغداء، أو أجلب لنا الطعام الجاهز من المطعم. وإن لم يعجبك، سأتصل مع البوليس وسيخرجونك من البيت.

لم أتمالَّك نفسي، وضربتها لأوَّل مرة في حياتي لأنَّها تمادَت علي لأوَّل مرة في حياتِها. ورأيتها تتصل بالرقم، وبعد قليل حضرت دورية من الشرطة، وضعوا يدَي في القَيد، وجلبوني إليكِ. عندها كان قرارك بوضعي في السجن لمدَّة أسبوعين، ووكلتُ أحد المحامين حتى أخرجني بكفالة.

طلعت من السـجن ورجعت لبيتي، فتحت زوجتي الباب لي وعندما رأتني أغلقته في وجهي، بقيتُ أطرق الباب ساعة ولم تفتح.

وقالـت بإنني إذا بقيت أطرق الباب سـوف تجرح نفسـها وتتصل مع البوليس وتقول أنني اعتديتُ عليها مرة أخرى ليعيدوني للسجن.

بقيـتُ عـشرة أيام أنام فيهـا عند بعـض أقربائي وأصدقائـي. وبعدها عدتُ إلى البيت وطرقت الباب، ولم تفتح، عندها كسرت الباب ودخلت البيـت، رأيـتُ زوجتي تجرح كتفها بسـكّين، وتتصل بالشرطـة، وجاؤوا مـرة أخرى وأخذوني مـن بيتي وأمام صرخـات أولادي وجلبوني إليكِ، وقرَّرتي سـجني مرة أخرى، وبقيتُ في السـجن شـهرين، وكان لا بدّ من تنازلها عن الادّعاء حتى أخرج، ولم تفعل رغم ذهاب أهلي لها. واشترَطَت أن أتنازل لها عن البيت وأكتبه باسـمها، وبعد شـهرَين آخرَين من عنادِها وبقائـي في السـجن، تنازلـتُ لها عـن البيت حتـى تنازَلَت عـن الادِّعاء، وطلعتُ من السجن.

وعندمـا رجعت للبيت، فتحت الباب وقبـل دخولي قالت: عليك أن تطيعنـي، نحن تحرّرنا مـن قيودكم، وإذا خرجتَ عن طاعتي سـأرجعك للسـجن بسـهولة، وصارت تتعامل معي على أنَّها رجل، وأنا امرأة، حتى أنَّها أحياناً أمام الأولاد تقول: قم اعمل لنا ابريق شاي.

وليتها اكتفت بذلك أمام أولادي، بل صارت تفعله عندما يحضر أهلي لزيارتي في البيت، و قررتُ أن أضع حدّاً لمأساتي، وطعنتها.

روَت لي هـذه الحادثـة التـي وقعَت معهـا وكانَت من أسـباب تقديم الاسـتقالة. وبعد عدَّة دقائق من الصمت، قالت إنَّه ذات يوم وقع خِلاف

بينهـا وبين زوجِهـا، وصل لحدّ أن رفع يده وصفعهـا صفعة قويَّة. قالَت: عندهـا تذكَّـرتُ كل تلـك القضايـا التـي قضيتُ فيهـا، وها أنـا أتعرَّض للضرب من زوجي.

وصرتُ أمـام أن أشـتكي بموجـب هـذه القوانـين وأُدخِـل زوجـي السـجن، وأنَّه عندما يخـرج لن يتركني عنده، بـل يُطلّقني، لأن الرجل لا يقبـل أن يعيش مع امرأة وهو مُهدَّد مِنها بدخول السـجن لمُجرَّد نشـوب خِـلاف بَينَهُـما، وهذا يَنـال مِن سِـيادَة الرَجل في البَيـت، والزوجة تحترم زوجها بمقدار ما يتمتَّع مِن سيادَة، ولا تحترمه بِمقدار عدم تمتّعه بالسيادة. والبَيت الذي يفقد فيه الرجل السـيادَة يكون بيتـاً مُتهزهِزاً، والبَيت الذي يتمتَّع فيه الرجل بالسيادة يكون بيتاً قوياً.

طُـرِق الباب، فدخَلَـت المُمَرِضة وهي تُقدّم لهم الشـاي، حمَل القاضي كأس الشاي وأردفَ يقول:

عندمـا تتقدَّم المرأة بشـكوى ضـدَّ زوجها، على الأغلـب لن يقبل ذاك الرجل أن تستمرّ علاقته الزوجيَّة بها، لأن تلك الشكوى في الواقع تشرخ أركان العِلاقـة الزوجية، وعلى الأغلَب يحصل الطَلاق على الفور، أو بعد وقت.

وإذا طالّبَـت بحضانـة الأولاد، فهـو لا يعطيها سـوى مبالِغ محدودة، ونحن نعلم أن نفقات العائلِة هي مفتوحة وليست محدودة، بسبب احتمال بعض الطوارئ التي قد تسـتهلك في يوم واحد مخصَّصات الحضانة لسـتة شهور. أو تتنازَل عن حضانتها، فتكون خسرَت بيتها وعائلتها، وكل هذا نتيجة مجرَّد تقديم شكوى.

والخسارة لا تكون أقل فداحةً حتى لو كانَت صبية تعيش في بيت أهلِها، ونحن نرى ظاهِرة قتل النساء دون عِقاب الجُناة، وهذه ظاهِرة جَلَبتها هذه القوانين على المرأة، فعندما تُصعّد البنت في طلب حريَّتِها، وتصطدم بالأب أو الأخ، ولمجرَّد تلقيها صفعة واحِدة تلجأ إلى هذه القوانين التي تُعاقِب الرجل سواء أكان أباً أو أخاً.

وهُنا تعتقد البنت بأنَّها حَصَلَت على حريَّتِها بسبب عدم استطاعة أحد منعها من ذلك، لكن الأهل وجدوا طريقة القتل لِمنعِها من هذا التمادي ضمن العائِلة، فيتم حرق البنت المُتمادية، ويشيع الأهل بأنّها أحرَقَت نفسها مِن خِلال سكب المازوت على ثيابِها وإشعال النار.

وبدأنا نرى بأن هذه الطريقة هي الأسهل بالنسبة للتخلّص مِن البنت التي تريد الخروج عَن عُرف العائِلة، وأحياناً بعض الأزواج أيضاً يلجؤون إلى ذلك مع زوجاتِهم لقطع الشكاوى.

صمتَ قليلاً، ثم قال: نحن نعلم بانَّها جرائم قتل، ولكن لا توجد أدلَّة عندنا، لأنَّ الحرق يخفي الأدلَّة حتى لو تعرَّضَت للضَرب وتم حرقها بالقوَّة، ولا أحد يتقدَّم مُدَّعياً.

والأمر الآخر أننا صرنا نزيد على هذه القوانين بالتضييق الشديد على الرجل، وأحياناً المرأة المسؤولة هي التي تضيف هذا التشديد وهي تعتقد بأنَّها تُحقّق لِنَفسِها المكاسِب.

مجتمعنا ينهار أمام عيوننا ونحن كما لو أن الأمر لا يعنينا، حتى الفتاة المُراهِقة إذا أرادَت يمكن لها أن تترك البَيت، لأنَّها ترى الرعاية الرسمية بموجب هذه القوانين، ولا أحد من أهلِها يستطيع أن يُعيدها إلى البيت،

والأمـر لا يخلو من اسـتغلال هذه المُراهِقة، لأن الحريَّـة تكون مفتوحة لها في كل مـا يعنيهـا، ويكون محظوراً عـلى الأهل مجرَّد المحاولـة لإعادتِها إلى البيت، ولا يُسمح لهم حتى برؤيتِها، أو معرفة المكان الذي تكون فيه.

عندمـا نهض القاضي مستأذِنا الخروج، نهض الطبيـب والمُلّا لوداعِه، فقـال وهـم وقـوف: منـذ مـدَّة تقدَّمَـت امـرأة إلى المحكمة بشـكوى أن زوجهـا قـد تزوَّج من امرأةٍ أخرى. ونحن بموجب هذه القوانين نسـجن الزوج، وحتى لا يحصل ذلك راح يسـترضيها، وهـي ترفض وتتحكَّم به حتى اشـترى لها بيتاً، وسيارة وسلسـلة من الذهب، ووضع لها رصيداً في المـصرف. وعندهـا جاءت وسـحَبَت الشـكوى. وفي الواقع هـذا ابتزاز، وثمار الابتزاز تكون فاسِدة.

نحن هُنا أغلقنا باب الزواج من امرأة ثانية، لكن في الواقع فَتَحنا باب العِلاقـات غـير الشرعيَّة، وفي أحسـن الأحوال بـاب الـزواج العُرفي، أو الشَهري، وأحياناً الأسبوعي، أو اليومي.

قال الطبيب: أشكرك على هذه الزيارة التي أرجو أن تُكرّرها بين وقت وآخر.

قـال: مهنتـي قريبـة مـن مهنتـك، والقضـاء حسّـاس مثـل الطـب يا حكيم. ممكن أنك تلحق الضرر بشـخص نتيجة تـسرّع في كتابة الوصفة، ومكـن للقـاضي أن يلحق الضرر بشـخص نتيجة تسرّع في كتابـة القرار. وعـلى القـاضي أن يتمتَّع بقوّة المُلاحظـة وهو يُحقّق مـع المُتَّهمين، لأن أي شـخص عندما يكذب، لا بدَّ أن تظهر عليه آثار الكذب، والقاضي الماهر هو الذي يكتشـف تلك الآثار مِن مواضعها وفي الأوقات المُناسِـبة، وهي

تظهر أحياناً على نبرات الصوت، وأحياناً على حركات الشخص، أو على نظرات عينَيه، أو على سمات وجهه، أو على مستوى الصوت الذي يحكي به، وكل أثر يظهر مع حالة مُحدَّدة، لذلك يُركّز القاضي الماهر بنظراته على المتَّهَم، ويُلقي عليه بعض الأسئلة لتحريك بعض الحالات عنده، وكما أن المريض يتحوَّل إلى ضحيَّة عند الطبيب المتسرّع من خلال الأدوية الغير دقيقة، يتحوَّل المَتَّهَم إلى ضحيَّة عند القاضي المُتسرّع من خلال القرار غير الدقيق.

والنتائج تكون متفاوتة، فيمكن أن تودي الوصفة الخاطِئة بإلحاق الضرر بنسب مختلفة بالمريض، ويمكن أن يودي القرار الخاطئ بإلحاق الضرر بنسب مختلفة بالمتَّهَم. لأن الكتابة عند الشخصَين تكون سهلة، لكن لها نتائج عمليَّة، لذلك فإن الطبيب الجيد لا يحمل القلم بسرعة ليكتب الوصفة، لأنَّه يمضي وقتاً كافياً في فحص المريض، كما أن القاضي الجيد لا يحمل القلم ليكتب القرار بسرعة، لأنَّه يمضي وقتاً كافياً في استجواب المتَّهَم.

بعض القضاة تكون الأقلام بأياديهم وهم يقومون باستجواب المُتَّهمين.

وهذه إشارة للتسرّع، لأن القاضي هنا يبدو في عجلة حتى يكتب، وليس في تمهّل حتى يعرف الحقيقة، وأحياناً يختصر التحقيق، ويُقاطِع المتَّهَم ولا يتركه يكمل قوله. ولذلك تزدحم سجوننا بالمظلومين نتيجة قرارات القُضاة المتسرِّعة، وتزدحم مشافينا بالمرضى نتيجة وصفات الأطباء المتسرِّعة. وهذا لا يحصل في بلاد الغرب التي نأخذ منها مثل هذه

القوانين المدنيَّة، لأن وزير الصحَّة يمكن له أن يستقيل من منصبه عند حدوث تجاوز طبّي في عهده، ووزير العدل يمكن أن يستقيل من منصبه عند حدوث تجاوز قانوني في عهده.

قال ذلك وخرج وهو يستودعها، فخرج معه ناظر يودّعه ويشكره على الزيارة، ثم عاد وجَلسَ على كرسي بجانب المُلّا وهو يُرحِّب به: صِرتَ نجماً لامِعاً في البَلَد يا أرسلان، أتابع أخبارك في الانترنت.

قال: أتذكر حديثنا السّابق يا ناظر، عندما قلتُ لك بأنّ مستقبلي سيكون أفضل من مستقبلك، ويومها استهزأتَ بي؟

شرد ناظر وبعد قليل قال: إي تذكَّرت يا أرسلان، يومها كنّا نزلنا من السرفيس، ونرجع للبيت.

قال أرسلان: هل تحقَّقَ ما قلته لك يا دكتور أم لا؟

قال: أكيد شهرتك هي أكثر من شهرتي، وبيتك هو أفضل من بيتي، وسيارتك هي أفضل من سيارتي، ورصيدك في المصرف هو أكبر من رصيدي، وسافرتَ إلى دول أكثر مما سافَرت، والنّاس يحتاجوك أكثر مما يحتاجوني، وعلاقاتك الاجتماعية هي أوسع من علاقاتي.

عند ذاك طُرِق الباب، فدخَلَت الممرِضة حاملةً فنجانَي قَهوة، فهمهم أرسلان في سرِّه وهو يتناول الفنجان: وعلاقاتي النسائية هي أكثر من علاقاتك.

قال الطّبيب بعد أن رشف رشفةً من القهوة: لكن هناك ما أريدُ أن أقوله لك يا مُلّا، وهو أن مستقبلك متهزهز، ومستقبلي ثابت، وأنا قرأتُ تلّاً من الآداب، وأنتَ حُرِمتَ مِنها، والناس يحترمونني أكثر مما يحترموك،

لا شيءَ لديـك ينفع الناس يا مُلّا، أنـتَ مفلس، وكلُّ ما لديك هو أتعابُ النّاس وأنتَ تعتاش بها، أنتَ لا تسـتطيع أن تنتج شيئاً وتقدّمه للناس، لا توجد لديك مهنة، أنتَ تعرف منذ طفولتنا كم أنا صريح، إي يا أرسلان يا صديق طفولَتي، الواقع أنتَ تعيش عالةً على الناس، كل الذين يُراجِعوك في جمعيَّتـك يعرفون هذه الحقيقـة على أرض الواقع، لا تنغـرّ كثيراً بالذي أنتَ فيه الآن، مستقبلك هو مستقبلٌ هَشّ يا صديقي.

كلُّ مـا لديـك هو ليس لـك، وإذا أردتَ أن تبدأ بدايةً سـليمةً ونظيفة عليـك أن تبيـع سـيارتك وبيتـك وتجمـع أموالـك وتوزّعهـا كُلّهـا عـلى المُحتاجين، وتبحث لك عن عمل تداوم فيه وتنتج فيه وتعيل أولادك من عَرقِ جبينك.

اعتمد على نفسك يا أرسلان ولا تعتمد على عطاءات الأغنياء، أحياناً عندمـا أراكَ في مواقعـك الالكترونيـة وأنـتَ تطلب مـن النّاس، أشـفِقُ عليك، لماذا تفعل بنفسك كلّ هذا، عِش بكرامَتك أفضل لك

يا صديقي إن أردتَ نصحي، وإذا كنتَ حريصاً على إيصال الصدقات للمحتاجين، تأكَّد بأنَّها ستصِلهُم بالتّساوي من الأغنياء أنفسهم أفضل مما تصل عن طريقك.

* * *

في اليوم الأوَّل من شـهر رمضان، ظهر المُـلّا في قنواتِه وهو يقول: جاء شـهر رمضان الكريم، ونحـن على أُهبَّةِ الاسـتعداد أن نبذلَ كلَّ جهودنا حتى نؤَمِّن المساعدات للمُحتاجين.

جمعيَّتنـا الآن تُعيـلُ مئـات العائلات مِـن اليتامى، إضافـةً لتقديم المُسـاعدات للكثـير مِن المُحتاجـين الذين يقصدوننا، ولا نـردّ أحداً، وعند حصول الطوارئ نُقدّم المساعدات للمحتاجين.

نناشـدكم بأن تأتوا بزكواتكم وصدقاتكـم وفطراتكم إلى جمعيَّتِنا، وثِقوا تماماً بأنَّنا نتحرَّى بشكل دقيق حتى نُوصلها إلى المُستحقِّين نيابةً عنكم.

مهـما كانَت المبالِغُ كبيرة أو صغيرة لا تتردَّدوا، بالمبلغ الكبير يمكن لنا أن نشـتري بيتاً لعائلةٍ يتيمة، وبالمبلغِ الصّغير يمكن أن نشتري ثوباً ليتيم يقيه من البرد.

ثـم أخذ يبكي وهو يتقدَّمَ إلى حشـد النّاس الذين يقفون أمام باب الجمعيَّـة قائِلاً: هؤلاء أخوة وأخوات لكم، ومَن لهم غيركم، إن كنتم مؤمنين حقّـاً، أسرعوا، ولا تتأخَّروا، هذه هـي تجارتكم الكُبرى عند الله، ونحن الآن في شهر الخيرات، شهر لا شهر في السنة مثله.

توقَّفَ قليلاً وهو ينشج ويمسح دموعه، ثم تقدَّمَ إلى طفلةٍ، حَمَلَها، وطبـع قبلةً على جبهتِها، فقالَت إنَّها مريضة، وقالَت أمُّها إنَّها لا تملك

ثمن أخذها للطبيب، ولا ثمن الأدوية، ولا توجد كسرة خبزٍ في بيتِها، وقد لاذَت بالجمعيَّة لمساعدتِها بِما يتيسَّر، وتسجيل اسمها كي تحصل على راتب شهري.

قال المُلّا: أخوتي وأخواتي، هذا نموذج مِن مئات المحتاجين الذين نوصل لهم خيراتكم، ونسأل الله أن يتقبَّل مّنا جهدَنا، ومنكم أموالكم.

لم يكن المُلّا يُصدّق بأن كلامه هذا سيترك كل ذاك الأثر في الناس، وأنَّهم سينهالون عليه مِن كل حَدبٍ وصَوب، وقد اكتظَّ الشارع المؤدّي إلى الجمعيَّة بالناس، وحتى الذي لا يملك نقوداً، يحمل بيده شيئاً من البيت مثل الثياب، أو الفراش، أو الأواني، أو جرة غاز، وبعض أصحاب المتاجر، أرسلوا له سلّات غذائيَّة، وانهالَت عليه أكياس اللحم الأحمر، والدجاج، فاشترى ثلّاجَتَين كبيرَتَين واحدة للَّحم الأحمر، والثانية للدجاج.

وأتى أطفالٌ يحملون حصّالاتِهم ويُقدّمونها إليه كي يفتحها ويوزّع ما بِها للأطفال اليتامى. وأرسل له بعض المغتربين من أبناء المدينة المبالِغ كي يوصلها نيابةً عنهم للمُحتاجين.

ورأى المُلّا بأن المخزن الضّخم امتلأ بالنقود ولم يعد يتَّسع، فصار يضع رزم النقود التي تأتيه في أكياسٍ مِن الخيش ويضعها فوق بعضها البعض بجانب المخزن.

في تلك اللحظات تمنَّى فيما لو كانَت سَكينة أرملة، أو مُطلَّقة وتخيَّل أنَّه يتزوَّجها ويشتري لها قصراً وسيارة، ويأخذها إلى باريس لقضاء

شـهر العسل. همهم في نفسـه: كل هذه الأموال لا تسـاوي شيئاً أمام قضاء ولو سـاعة واحدة معك يا سَـكينة، كل هذه الأموال سـأضَعَها تحـتَ قدَميكِ، سـأضع الجمعيَّـة كلَّها تحـتَ قدَمَيك، لـو تعلمين كم اشتقتُ ولو لنظرةٍ واحدة إليكِ، ولو لكلمةٍ واحدةٍ معك.

بعـد العيـد بيومَين أجرى اتِّصالاً مع ترنيم، وقال بأنَّه اليوم مسـاءً سيفتح الجمعيَّة ويوزّع اللحم والدّجاج.

في المسـاء جـاءت ترنيـم، ولم تجد أحـداً في الجمعيـة، فتقدَّمَت إلى مكتبه وطرقت الباب، ليفتح مُرحِّباً بِها.

نَظـرَ إليهـا وهـي تجلس عـلى الكـرسي، تخيَّلَ وجـه سَـكينة فيها، وتحرَّكَـت فيه شـهوةٌ نحوها. قال بقي عندنا بعـض اللّحم والدّجاج، وتذكَّرتك؟

قالَت: مشكورٌ يا مُلّا على كل ما تعطيه لي، لا أعرف لولاك ما كان حلَّ بي، ظروفي صعبةٌ يا مُلّا، حتّى بيتي بالأجرة.

قـال وهو لا يزال ينظر إليها: الجمعيّة تريحـك من الأجرة يا ترنيم خاتون.

تفاجأت وهي تسـمعه يناديها باسـمِها ويضيـف: خاتون. فنهض المُـلّا وقد انتصَبَ عضـوه، اتَّجه إليها وهو يقول: مادمتُ في الحياة، لن أتركك تحتاجين أي شيء، لا أنتِ ولا ابنك.

وقفَت على قدَمَيها وقالَت: أطال الله بعمرك يا مُلّا.

ثم نَظَرَت إليه، وبدأ قلبها يهبط، قال المُلّا بشفتَين مُتهدّلتَين وهو لا يزال ينظر إلى وجه سَكينة في وجهِها: اختاري البيت الذي يعجبك في

المكان الذي تريدين والجمعيّة تشتريه لك.

قالَت بدهشة: صحيح يا مُلّا؟!

مَدَّ كفَّه يُداعِب شعرها برفق قائِلاً: إي صحيح. وما لبث أن ضَمَّها بذراعَيه، ووقَعَ بلهفةٍ على وجهِها بالقُبلات، ثم على مساحة صدرِها، عند ذاك انحدَرَت دموعٌ مِن عينَي ترنيم، فصار المُلّا يمسحها، واتَّجَه بِها إلى الكَنَبة المُجاورة واستَلقَيا عَليها.

بعد أن انتهى المُلّا أعطاها مبلغاً مِن المال وكيسَين من اللّحم، ودجاجتَين، وقال إنَّه ينتظرُ أن تُخبِره عن البَيت حتّى يشتريه لها. وقبل أن تخرج، سألَها عَن أحوال زوج سَكينة، فقالَت إنَّه خَرَجَ مِن المشفى، لكنَّه لا يستطيع الذهاب إلى العمل بسبب كسرٍ في عموده الفقري.

قال: أخبريها بأنّني سأزورهم في البيت مساء الجمعة القادم مع لجنةٍ من الجمعيّة.

بعودَتِها إلى البَيت، عَرَجَت إلى بيت سَكينة ولكنَّها كانَت قد خَرَجَت لتشتري بعض الحاجات مِن الدُّكان، فقالَت لأبي سلوان الذي فتَحَ الباب بأنّ لجنة من الجمعيّة ستأتي إليهم مساءَ الجمعةِ القادم لتقديم المُساعَدة.

عندما حلَّ الموعد استعدّوا لاستِقبالِهم، لكن تأخّر الوقتُ ولم يأتوا، وفي أمسية اليوم التّالي عندما طُرِقَ البابُ وفتَحَت سَكينة رأتهم، فرحَّبَت بهم وهي تدعوهم للدُّخول.

ألقوا نظراتٍ إلى مساحة الحوش، وهم يدخلون، فاستقبَلَهم أبو سلوان في الغرفة التي كان سلوان مستلقياً فيها على فِراشِه.

قال المُلّا: الجمعيّة ومن أموال أهل الخير قرَّرت أن تبني لكم دكّاناً في الحوش على الشارع، وتملأه بالسِّلع حتّى ترتزِقوا منه.

فَرِحَت سَكينة وهي تنظرُ إلى زوجِها، فقال أبوه: وفَّقكم الله.

عند ذاك نهضوا فمدَّ المُلّا ظرفاً إلى أبي سلوان قائِلاً: هذه مساعدة لكم حتّى نبني الدكّان، يوم الغَد إن شاء الله نرسل العُمّال ليُجهِّزوه لكم، ونملأه بالسّلع، ونسلّمه لكم لوجه الله تعالى، ولا نريد منكم غير الدُّعاء لنا ولأهل الخير الذين يُكلِّفوننا بتوصيل أموالَهم إلى المُستحقّين.

* * *

دخـلَ أدهـم إلى مكتـب المُلّا وأخـبره بأنّ لديـه فكرة جديدة سـوف تستقطبُ المزيدَ مِن النّاس ليدفعوا للجمعيَّة.

قال المُلّا وهو يُحدّقُ فيه: ما هي يا أدهم؟

قـال: نتكفَّـل بعـضَ الشـبّان الذيـن يريـدون الـزواج ولا يملكـون النفقات.

قال: أحسنت يا أدهم، فكرة ممتازة.

قـال: نحـن هكذا نربط مختلف شرائـح الناس بجمعيَّتِنـا، الآن يا مُلّا صارَت جمعيَّتنا أشهر جمعيَّة في البِلاد.

في الأسـبوع القـادم ظهـرَ المُـلّا في قنواتِه وهـو يقف مع ترنيـم وابنِها ويقـول: هـذه سـيدة فاضِلَّة من أخواتِنـا وقد توفِّي زوجُهـا وترك لها هذا الصبـي. ثم تقـدَّم إلى الصبي وقبَّلَه وأضاف: وهي لا دخل لها، وتسـكن في بيتٍ بالأجرة.

اليـوم وبفضل الله تعالى اشـترينا بيتاً لهذه السـيدة الفاضِلة مِن أموال أهل الخَير لتسـكن فيه مـع ابنها وتربّيه تربيةً صالِحة حتى يكون شـخصاً صالِحاً في مجتمعنا المتآخي.

نحـن نحرصُ كلَّ الحِرص على سـلامةِ مجتمعنا حتّى يبقى مُتماسِـكاً، لقـد نذرنا أنفسـنا لخدمة هـذا المُجتمع، وبقدر مسـاعدتكم لنا، نصلُ إلى أكـبر عددٍ مِـن المُحتاجين، ونرجو منكم جميعاً الدُّعـاء لنا حتّى يمدَّنا الله

بالقوّة، ويُحنّن قلوب الأغنياء على إخوانهم الفقراء.

ثـم قال: جمعيَّتنا الخَيريَّة تتوسَّـع بقـدر الإمكانات، ونعلـنُ الآن بأنّنا نتكفَّـل بتكلِفة الزواج لمجموعة من أبنائِنا وبناتِنا مِن العائِلات المُحتاجة، وهكـذا نفرّج عنهم ونُسـاهم في بنـاء عائلات صالِحة في مجتمعِنا، ونسـدّ أبـواب الانحـراف، لأنّ الـزواج يُحصِّـن شـبابنا وشـابّاتنا، وهـذه هـي مسـؤوليَّتنا جميعاً، وبهذه المُناسبة، أُناشِـدُ الأهالي بأن يُخفّفوا مِن المُهور ما أمكن.

في الصّبـاح عندما تهيّأ المُلّا للذهاب إلى الجمعيَّة، قالَت له زوجته بأنَّها اليوم لن تأتي، لأنَّها ستزور أهلها.

في تلـك اللّحظـات تقافَـزَت صـورة سـكينة إلى مُخيِّلتـه وهـو يخرج، وبوصولِـه إلى المكتـب اتَّصلَ مع ترنيم وطلب مِنهـا أن تأتي وتجلبَ معها سـكينة حتّى تأخـذا مِن الجمعيَّة اسـتحقاقهما من المُسـاعدات، لأنّ أحد الميسـورين منـذ أيام قَد نجا مـع عائلته مِن حادث، وأتـى البارِحة بمبلغٍ وطلب أن يوزّعه حالاً على عائِلاتٍ مُحتاجة.

تَجهَّزَت ترنيم على عجل، وركبتْ سيارة أجرة متَّجِهةً إلى بيت سكينة، عند ذاك رأتها جالِسة في الدُكّان، فسلَّمَت عليها وتبادلتا القُبلات بحرارة، فقالَت ترنيم وهي تنظرُ إلى الشـارع: كم اشـتقتُ لهذه الحارة يا سـكينة، لكـن تخلَّصتُ من الأجرة في بيتي الجديـد، يبقى الملك أفضل من الأجرة مهما كان، وأنتِ ما أخبارك؟

قالَت: في هذا الدُكّان، وعندما أتعب يأتِي أبو سلوان نيابةً عنّي، الحمد لله الظُّروف أحسن.

قالَت: اتَّصَلَت بي الجمعيَّة حتّى نذهب ونقبض مساعدة لك ولي.

عنـد ذاك دخلَـت سـكينة إلى غرفة سـلوان، فوجدَته نائِـماً، نادته، ولم ينهض، فراحت لأبيه تستأذنه كي تذهب مع ترنيم لتأخذ المُساعدة.

قال: اذهبي يا بنتي، ولا تُغلقي الدكّان، أقعد فيه حتّى ترجعين.

عند دخولِهما إلى المكتب نهضَ المُلّا مِن خلفِ طاولتِه مُرحِّباً بهما كما لو أنَّه غير مصدّقٍ بأنّ سكينة أمام عينَيه.

قالت: أشكركَ يا مُلّا على الدّكان وعلى كل ما تقدّمه لنا من مُساعدات.

قال: الشُّكر لله، أنا فقط واسِطة بين الأغنياء والفقراء.

في تلـك اللّحظات طرق أدهـم الباب ودخل قائلاً: يـا مُلّا أريد رقم هاتف السيدة ترنيم حتّى تأتي إلى الجمعيَّة وتبصم على عقد استلام البيت.

قال: يا للمُصادَفة، هذه هي ترنيم جالِسة.

قال: لا تؤاخذيني يا أخت ترنيم، ما عرفتك، رَغم أنّني كنتُ مع المُلّا عندما استلمتي البيت.

قالت: لا توجد مشكلة، أنا جاهِزة.

قال: تفضّلي معي دقائق لتبصمي على العقدِ وترجعين.

خرجَت ترنيم معه، فوجَدَت سكينة نفسها وحيدة مع المُلّا، فقال لها: اطمئنّي يا سكينة خاتون، الجمعيَّة لن تتخلّى عنكِ.

دُهِشَـت مِن قوله سـكينة دون يا أخت، وأيضاً خاتون، فقالَت وهي ترفع نظرها إليه: شكراً لك يا مُلّا.

نظر إليها بشـهوةٍ، ثمّ ما لبث أن نهضَ من خلف كرسـيّه مُتقدِماً إليها وهـو يُناولها ظـرف النُّقـود. وعندما أخذته ودسَّـته في حقيبتِهـا، مدَّ يده

يُداعِب خدَّها، فدفعَت اليَد.

أحسَّ المَلّا بأنَّه صُدِم، فقال: كل ما في هذه الجمعيَّة من أموال هي تحت تصرّفك يا سكينة خاتون.

وعندما تقدَّم بفمه من وجهِها، سَدَّدَت صفعةً على وجهه وهمَّت بالخروج، لكنَّه سارعَ إلى الباب ومَنَعها.

بَصقتْ عليه ثمّ أخرجَت الظّرف وقذفَته في وجهه قائِلةً: خذ ظرفك يا قوّاد واتركنِي أخرج.

هاج المُلّا شهوةً كثورٍ جامح، وهو يُحاصِرها ويضع كفَّه على فمِها، وهي تُخرمش وجهه الذي صار ينزّ بالدماء، وتنتف لحيته، لكنَّه لم يتراجع وقَد استلقى عليها، وفي لحظات محاولته للتمكّن مِنها، أجمعَت ما في جسدِها مِن قوَّةٍ ونَفَضَته بعزم، لينقلِب المُلّا بظهره على الأرض، وقد فُجَّ رأسُه. وهرولَت سكينة خارِجةً مِن المكتب مُنهارة.

نهض المُلّا وهو ممرَّغ بالدماء التي غدت تنز مِن رأس وراح يغتسل، ويُضمِّد الجرح بمنديلٍ مُعقَّم. ثم ما لبث أن أجرى اتَصالاً مع أدهم كي يأتي على الفور، وبمجيئه فتح شقاً صغيراً من الباب وهو يقول بأن لديه بعض الضيوف، ومدَّ إليه ظرفاً وطلب منه أن يعطيه لترنيم ويُخبرها بأن صديقتها سبقتها في الخروج بسبب تأخّرها.

بوصول سكينة إلى البيت، لم تشأ أن تمرّ على الدكّان، ودخَلَت منهارة إلى البيت، كذلك لم تستطع أن تدخل غرفة سلوان، وراحت تجلس في المطبخ وتنشج بصوتٍ كسير.

هكذا في لحظةٍ انقلَبَ كلُّ شيءٍ رأساً على عَقب أمام ناظِرَيها، وبعد

قليلٍ أحسّـت بالدوار، فسـارعَت تسـتلقي على الحصـيرة في غرفة ابنتَيها حتـى عادَتا مِن المدرسـة، فقالَت لهـما إنَّها مُتعبة ولم تسـتطع أن تصنع لهما الغـداء. وطلبـت من شـادن أن تذهـب إلى جدّها في الـدُكّان وتأتي بعلبة سردين لغدائِهما.

عند أذان الفجر اسـتفاقَت كعادتِها للصـلاة، لكنَّها لبثت في الفراش، ولم تُصل، كما لم تُصل منذ عودتها مِن الجمعية.

كان المُـلّا يمثّـل لها رمـزاً من رمـوز الدِيـن، وها هو الرمـز ظهر على حقيقته.

اسـتبدَّ بها شـعورٌ بأنّ معنوياتها خارَت، وأنَّها امرأة آثِمة، وخائِنة ولا تستحقّ أن تكون زوجةً ولا أمّاً.

أدرّكَت للتو قيمة أن يكون الإنسانُ عَفيفاً، أن يكون طاهِراً، أن يكون صادِقاً، أن يكون مُخلِصاً. والآن، أفسَـد المُلّا عليها حياتها الجميلة الهادِئة، عَكَّرَ مياهها النقيَّة.

تقلَّبَـت في الفِـراش واسـتأنَفَت الشرود: هل بو سِـعِها أن تعود إلى ما كانَت عليه لغاية يوم البارِحة الأسـود، يوم العار الأكبَر في حياتِها، وكأنَّ شـيئاً لم يحصل؟. كم تمنَّت فيما لـو شُـقَّت الأرضُ وابتَلَعتها وهي تتخيَّل رجـلاً يُحـاول اغتصابها، رغم أنَّها قاوَمَت بكل مـا لديها مِن فوَّة ولم تُمكِّنه مِن مُرادِه.

عندمـا اقترب موعـد ذهاب ابنتَيها إلى المدرسـة، نَهَضَت مِن الفِراش بخمولٍ، وراحَت تسـلق لهما بيضَتَين، وتُحضّر كأسَـين مِـن حليب النيدو المُجفَّف.

وبخروجِهـا أعدَّت الإفطـار، وأدخَلَته إلى الغرفة التي يستلقي فيها سـلوان، رأتـه مُستَيقِظاً ينظـر إلى السـقف. لم تلق عليه السـلام على غير عادتِها لأنَّ الغصَّة العالِقة في حنجرتها منعتها مِن ذلك.

وضعت سـفر الإفطـار بجانِبه وخَرَجَت متَّجِهـةً إلى الدكّان، وعندما رآهـا أبو سـلوان الذي اعتادَ أن يفتـحَ الدكّان مُبَكِّـراً، أدرَكَ بإن الإفطار جاهِزٌ كالعادة، فخرج تارِكاً إيّاها تجلس على كرسيّه.

كل ما في الدكّان غدا باهِتاً أمام ناظِرَيها، حتى البَيع لم يعد يثر اهتمامها.

بعـد تنـاول الإفطار عاد أبو سـلون إلى الـدكّان وهو يحمل كأسـاً مِن الشاي، ويُدخّن سيجارة. فخَرَجَت على الفَور واتَّجَهَت إلى سلون لتُخرج سفرة الإفطار.

عند ذاك رُمَقَها بنظرةٍ أجفَلَتها، بَيدَ أنَّها اسـتطاعَت أن تضبط نفسـها، فأشـار إليهـا أن تجلس بالقُـربِ مِنه. وبعد قليـلٍ امتَدَّت أصابِـع كفَّه إلى أصابِـع كفّهـا، فالتفَتَت إليـه لتلتقي نظراتُهـما بغتةً، وعلى الفَـور أزاحَت نظراتهـا، وصارَت تنظر إلى أصابع يَده وهي تتلامَس مع أصابع يَدها. في تلك اللحظات خَطَرَ لها بأنَّ الأصابع تبوح بشيءٍ للأصابع.

بعـد قليلٍ سَـحَبَ أصابِعه بتـؤدَّةٍ، فنَهَضَت على الفَور حامِلةً السـفرة واتَّجَهَت إلى المَطبخ.

* * *

استنفَر المُلّا عندما رأى امرأةً يظهر شيءٌ مِن شَعرِها في إحدى قنواتِه الإلكترونية، فنادى أمير مسؤول النشر ووبَّخه قائِلاً: كيف يا أفندي يظهر شعر امرأة في قناة جمعيَتِنا، ألا تعلم بأن شعر المرأة عورة، كيف تجعلنا نتحمَّل هذا الاثم، الذين يُتابِعوننا يزيدون عن مليون شخص.

قال أمير: مُلّا هذه امرأة أجنبيَّة اعتَنَقَت الاسلام.

قال: تستطيع أن تخفي شعرها، ظهور الشعر مفسدة، ويمكن أن يستدرج بعض نساءنا المُحجَّبات. أهم شيء تُركّز على نشر مقاطع مِن القرآن بأصواتٍ جميلة ومؤثِّرة، تنشر بعض الآيات المكتوبة على بطاقات، تنشر صوراً للمصحف وهو مغلق، وهو مفتوح. تنشر بعض الأحاديث النبويَّة، والأدعية. وانشر بعض المقاطع القصيرة من جولاتي، وأحاديثي الدينيَّة.

-: أمرك يا مُلّا، أعدك بأن هذا الخَطأ لن يتكرَّر.

-: هل لديك سيارة؟

- منذ سنة وعدتَني يا مُلّا بِها ولا أزال أنتظر.

-: لماذا لم تُذكِّرني.. نسيت، على كل حال خذ لك سيارة على كيفك وابعث مندوب الشركة حتى أعطيه ثمنها.

-: بارك الله بك يا مُلّا.

-: أنتَ قلب الجمعيَّة النابِض يا أمير، عملنا يعتمد عليك، الإعلام

المؤثّر هو الذي يجلب لنا الناس، اليوم هو يوم الإعلام يا أمير، ونحن نستمدّ نجاحنا مِن إعلامنا الناجح.

-: أعدكَ يا مُلّا بتنفيذ كل توجيهاتك على أكمل وجه.. ونحن أيضاً يا مُلّا فتحنا حسابات جديدة نثني من خِلالِها على عملِنا، ونردّ على بعض ذوي النفوس الضعيفة الذين يريدون النَيل مِن جمعيَّتِنا.. لدينا مئات الأشخاص الذين يُتابِعون معنا المُنشورات ويكتبون تعقيبات فور النَشر، وهذا أمر مهم يا مُلّا لأنَّهم يُشجّعون الناس حتى يكتبوا ويثنوا على حُسن عملِنا. وإذا رأوا أحد المغُرضين يريد الإساءة، يردّون عليه فوراً ويُفحِموه.

هناك أناس كلّما تظهر في قنواتنا يكتبون في التعليقات: ها هو المتسوّل المُحترف. ومنذ أيام كتب أحد أخوتنا الردّ الذي أفحمه.

قال: ماذا كتب؟

قال: كتب إذا كان المُلّا أرسلان يتسوَّل مِن الأغنياء ليعطي الفَقراء، فنِعمَ التسوّل.

هذا مِن أنشط الذين عيَّنّاهم للردود، ولديه عشرة حسابات مستعارة يردّ بها على المُغرضين. عندما رأيناه بهذا الذكاء وهذا النشاط عيَّناه في قسم الإعلام براتب شهري.

نجاحنا جعل لنا أعداء يا مُلّا ولا بدَّ أن نتصدى، وكثر الناس الذين يريدون إنشاء جمعيّات، لكنَّهم لا ينجحون، لأن الناس لا يثقون بهم مثلما يثقون بك.

في تلك اللحظات رنَّ هاتف المُلّا، ففتح الخط ليتناهى صوتٌ نسويٌ:

السلام عليكم. أشار لأمير بالخروج، وقال: عليكم السلام.

قالّت: أنا ثناء يا مُلّا.

قال: أهلا وسهلاً.. تفضَّلي

قالَت: هل عرفتَني؟

قال: لا أذكر الاسم

قالَت: أنا ثناء، منذ أربعة شهور جئتُ عندك حتى تفتيني في زوجي الذي لا يُصلّي، وقلتَ لي بأن العلاقة الزوجيَّة مُحرّمة بيننا، مِن يومِها لم أمكِّنه مِن نفسي، لكن يا مُلّا البارِحة لم أستطع مُقاومَته، ضربني حتى استسلمت له.

قال: هذا اغتصاب يا أخت ثناء، وهو زَنا بكِ مادام لا يُصلّي، وكان يمكن أن تُدافعي عَن نفسك، والدفاع في هذه الحالة مشروع مهما كان.

قالَت: يعني ليس علي إثم يا مُلّا؟.

قال: مِن حقّك أن تدفعي عن نفسك الزنا.

قالَت: طلبتُ منه الطلاق، لكنَّ لا يُطلِّقني

قال: هذه مشكلتك يا أختنا الكريمة وعليك مواجهتها وعدم الاستمرار في الزِنا، لأنَّك تفتحين لنفسك باب جهنَّم، كوني على حذر.

بعد شهرٍ من الاتَصال وبينما كان زوجها يتفحَّص برميل الماء على السَطح، صاحها طالِباً منها مفتاحاً كي يشدّ الصنبور الذي كان الماء يتسرَّب منه.

وعندما ناوَلَته المُفتاح، وغدت تنظر إليه يشدّ الصنبور، وإلى المساحة الصغيرة بينه وبين الأسفل، قفز إليها كلام المُلّا بأن تُدافِع عن نفسِها

وتمنعه مِن اغتصابِها مرَّةً أُخرى، ثم قفز إليها بأنَّه يتكفَّل اليتامى ويشتري لهم بيوتاً.

تَقدَّمَت إليه بشكلٍ مباغتٍ ودَفَعَته بقوَّةٍ ليرتمي على الأرض، ثم هَرَعَت وهي تولول بأنَّ زوجها سقط من السطح.

عندما شاع خبر موت الرجل، قالَت امرأة مِن الحي: بكرة تروح تستلم المعاش مِن مُلّا أرسلان.

قالَت أخرى: منذ أسبوعَين ماتَ رجل بماس كهربائي، يقولون بأنه كان على خِلاف مع زوجَته، وكان يُصلح العطل في الكهرباء، وطَلَب منها أن تفصل الساعة، وبينما كانت الأسلاك بيده، أشغلت الساعة ليموت المسكين، وبعد يومين ذهبت إلى المُلّا، وأعطاها مبلغاً من المال، وسجَّل اسمها في الراتب الشهري.

أخت المغدور قالَت إن زوجة أخيها كانَت ذهبت منذ ستة شهور مع إحدى جاراتِها إلى جمعيَّة مُلّا أرسلان، ومِن يومها نشَب خِلافٌ بينها وبين زوجِها لأن المُلّا كان أعطاها مبلغاً للمساعَدة، وبعد شهر رآها تتحدَّث معه في الهاتف، فسحبه من يدها وحذف رقم المُلّا، وراح إليه في الجمعية يطلب منه بألاّ يتحدث مع زوجته.

ويقولون إن الملّا اتَّصل مع الشرطة وادَّعى بأنَه تهجَّمَ عليه في المكتب، يومها توقَّفَ خمسة أيام، لكن زوجته راحت تتوسَّل المُلّا حتى أسقطَ حقَّه وخَرَجَ زوجُها بعد أن تعهَّد بأنَّه لن يتعرَّضَ للمُلّا مرة أخرى.

* * *

في الصباح جلس المُـلّا خلف مكتبه بوجهٍ عابسٍ وهو يشرد كيف أنَّـه منـذ أن بدأت زوجته أم شـبل بالدوام في الجمعيَّـة لم تدخل امرأة واحدة إلى غرفته بمُفرَدِها.

أحسَّ بأنَّها باتَت تُشكِّل عِبئاً عليه، وأنَّها تُضيِّق عَليه حياته، وتُقيِّد حريَّته وغدا العمَلُ يفقد حرارته بالنِسبة إليه.

في تلـك اللحظـات دَخَـلَ مُديـر مكتبه حامِـلاً إليه كأس شـاي، وضَعَها أمامه وانصرف.

رَمَـق الـكأس وهو يتخيَّل النشـوة التي كانَت تنتابـه حينما تُدخل إليه مُديرةُ المَكتب كأس الشـاي، فينظر إلى وجهِها وهو برشـف شاي الصباح الساخِن، و يستمتع بالحديث معها قليلاً.

حتى الشـاي فَقَدَ نكهته وهو يرتشفّه ببرود، ولم يعد ينتظر مفاجأة أن تدخـل إليـه امرأة جميلـة بِمُفرَدِهـا، ويتمتَّع بالنَظر إليهـا، وبتقديم الضيافة لها، ويسـتمتع بالحديث معها، وسـماع صوتها، ثم يشعر بلذَة إعطاءها ظرفاً محشوّاً بالنقود.

هكـذا عندما تمتَـدّ كفّه حامِلةً الظَرف، وتمتَـدّ كفُّها الخاوية، فيضع فيها الظرف وهو يشعر بنشوةٍ غامِرة عندما يُصبح الظرف الذي يحمل بَصمات كفّه في كفِّها.

أمّا الآن، فمهما كانَت المرأة جميلة، فإنَّه لا يستطيع أن ينظر إليها إلاّ

لمحـة بسـيطة، ولا أن يتحدَّثَ معها لأنَّ الرجل الـذي يُرافِقها، ينوب عنها في الحديث. وعند الضرورة القصوى عندما تُبادِر هي بالحَديث، يغض بصره عنها و يجيب.

وهـو في ذروة التفكير، خَطَرَت لـه فكرة أن يذهب إلى أبيها، خبَّطَ بكفِّـه على الطاوِلة ونهض على الفَـور وهو يُتمتم: كيف لم أفكر بذلك مِن قبل، هو الوحيد الذي يستطيع أن يؤثّر عَليها.

خَـرَجَ مِـن المَكتَـب، وعندمـا وقَعَـت عينـاه عـلى حشـد الرجال والنسـاء، تمتَـم: هـذا الجَمع لـن يدوم هكـذا، ولا بـدَّ أن يتقلَّص إلى النصف، وسـيكون فقـط خاصّاً بالنِسـاء، هكذا عندمـا تدخل امرأة لوحدِها، ينشرح صدري، وعندما يدخل معها رجل، يضيق صدري.

مضى وسَـطَ الحَشد وهو يقول إن لديه عمل طارئ، وسوف يعود بعد قليل، ثم ركب السيارة واتّجه على الفَور إلى أبيها في البَيت.

قـال إنَّ أم شـبل منذ أن بدأت بالدوم في الجمعيـة، تَراجَع الأولاد في دِراسَـتِهم، وأيضاً صار يخاف عليهم مِن سوء استخدام الانترنت، لأنَّهـم يبقـون لوحدِهم في البَيـت، عندما يرجعون من المدرسـة. وفي نهاية الدوام تعود أم شبل مُتعَبة ولا تجد وقتاً للعِناية بالبيت والأولاد.

في المساء جاء أبوها في زيارةٍ إليهم وطَلب من ابنته أن تترك العمل في الجمعيَّـة وتتفـرَّغ للبيت والأولاد. ولم يُخبِرها بـأن المُلّا قد جاء إليه صباح اليوم.

عنـد ذاك رَضَخَـت لمطلَـب أبيها، وعنـد خروجِه قالَـت للمُلّا إنَّ أباها طَلَبَ مِنها ترك العمل في الجمعيَّة.

قال: أنا خارج الموضوع.. أنت حرة يا أم شبل.

في صباح اليوم التالي، أحسَّ المُلّا بأن قَيداً فُكَّ عَنه عندما خَرجَ بِمُفرَدِه يقود السيارة صوب المَكتَب.

بِجلوسه على الكُرسي، شَرَدَ بِسَكينة، لفتت نظره الكُنبة التي استَلقَت عَليها، تَرَكَ الكُرسي وراح يقعد على ذات الكَنَبة ويمسح بكفِّه عليها. بعدَ قليلٍ أخرجَ هاتِفه وأجرى اتِّصالاً مع ترنيم طالِباً مِنها أن تذهب إلى سَكينة وتُخبِرها بأن الجمعيَّة مستعدَّة لتقديم المساعدة لها عند الحاجة.

قالَت ترنيم: أنتَ تأمرني يا مُلّا.

بعد نحو ساعتَين جاءته ترنيم وأخبَرَته بأنَّها راحت إليها، لكنَّها قالَت إنَّها لا تحتاج شيئاً.

صوَّبَ نَظره إليها، ومِن جديدٍ تَخيَّل وجهَ سَكينة في وجهِها، جَسَدَ سَكينة في جَسَدِها، وأنَّها تحمل رائحة سَكينة وقَد جاءَت للتو من عندِها.

تَقدَّمَ إليها وضمَّها إلى حضنه، وصار يقع بالقُبُلات على وجهِها، وبعد قليلٍ تركها، وعاد إلى كرسيِّه خلف الطاولة، سحب أوراقاً نقدية ومدَّها إليها، فأخذَتها ترنيم وخرَجَت على الفَور.

بينما كانَت سَكينة واقِفة في المطبخ تعدّ طعام الغداء، رُنَّ هاتفها، وعندما فتحت الخط، تناهى لها صوت المُلّا: لا تكوني عنيدة يا سَكينة، تعالي والجمعية ستكرمك بكيلو ذهب وسيارة.

-: تفو عليك يا كلب. قالتها وأغلقَت الخط. وبعد قليل عاد

الهاتِـف إلى الرنين، وبفتح الخَـط وعندما فتَحت الخَط، اندفعَت نبراته الغاضِبـة إلى مسـمعِها كالـشرار: سـتندمين وتأتين إلي غصبـاً عنكِ يا كلبة، لا أحد في هذا البلد يقول للمُلّا أرسلان لا.

فأغلقَت الخط، وحظَرَته.

لكـن قلبها أخذ يخفق بشـدَّة كما لو أنَّه يريد الخـروج مِن صدرِها، وصارَت ترتعد وهي تتخيَّل ما الذي يمكن للمُلّا أن يفعله.

* * *

عندما مَدَّت ترنيم يدها لتطرق الباب، ترامى إلى سمعها صوت المُلّا: سائقك غير ماهر يا أدهم.

قال: هو نفسه الذي استخدمناه لأربع عمليَّات ونجح فيها، لكنَّه قال بأن أحد الأطفال ركض فجأة ليقطع الطريق، وحتى لا يصدمه اضطر لتخفيف سرعة السيارة، ولولا ذلك لَما فلتَ سلوان مِن الحادث.

قال: هذا ما كنّا نريد يا أدهم.

تراجَعَت قدما ترنيم بها إلى الوراء، حتى استدارَت وعادت على الفور إلى البيت. عند ذاك رُنّ جرس هاتِفها، فجَفَلت وأخرَجته لترى اسم سَكينة. لبثت تنظر إلى الاسم وهي تسمع رنين الهاتف وتتردَّد مِن فتح الخَط. فتوقَّفَ الرَنين، وتوارى الاسم عن الشاشة.

بعد نحو نصف ساعة من ذلك، أجرَت الاتِّصال بِها واعتَذَرَت عن عدم تمكّنها مِن الردّ على مُكالمتِها. فقالَت سَكينة بصوتٍ مضطربٍ: أريد أن أراك ضروري يا ترنيم.. أنا خائِفة تعالي الآن.

قالَت: خير يا سَكينة؟

قالَت: لمّا تجيئين، أُخبِرك.

عند ذاك استعادَت ذاكِرتها اللقاء الأوَّل بالمُلّا، وكيف أنَّها لم تطمئن له، وقد أحسَّت بزيغ نظراتِه، ولذلك رفضَت الظرف، لكنَّه

عندما أصرَّ، قَبِلَت وقالَت بأنَّه قد يكون صادِقاً، وأن إحساسها نحوه قد لا يكون دقيقاً. ورغم ذلك لم تستطع أن تقتنع ذات يوم بأنَّه رجل صادق، حتى نبراته كانت تصرخ في سمعها بأنَّه غَير صادِق، وأنَّ ما يخفيه هو عكس ما يعلنه.

وهُنا بدأت تُحمِّل نفسها مسؤوليَّة الذي حصل، والذي سيحصل، ولذلك قرَّرَت أخذ الموقف الصارم تجاهه لتصحيح ما وقَعَت فيه من خطأ، لأن هذا الموقف وحده هو سبيلها لعدم الإذعان له.

رَنَّت ترنيم على جرس الباب بيدٍ راجِفة، وعندما فَتَحَت سَكينة، رَمَت نفسها في حضنِها وهي تبكي. ثم قادَتها إلى الداخِل.

تفاجأت ترنيم بِما حلَّ بِها، فقد شحب وجهُها، وبدت كما لو أنَّها مُصابة بداء السل.

قالَت بريقٍ جافٍّ: أنا بحاجة لك يا ترنيم، المُلّا اتَّصل بي وهدَّدَني حتى أذهب إليه. قولي له بأن يدعني بحالي، لا أحد لي في هذا العالم كلّه غير عائِلتي الصغيرة هذه.

قال: ماذا حصل؟

قالَت: عندما ذهبنا آخر مرة، وخرجتي، تحرَّشَ بي في المكتب، وهربت، الآن يُهدّدني حتى أذهب إليه مرة أخرى.

قالَت: والله يا سَكينة هو رجل خَطير، ولا أعرف ماذا أفعل.

ثم صمتت وبكَت بحرقة، وهي تقول: سامحيني يا صديقتي، أنا تسبَّبتُ لك بكل هذا، ليتني لم أكن جارتك ذات يوم، ليتني لم أعرفك.. ذهبتُ اليوم إليه وعرفت بأن المُلّا هو الذي يقف خلف

حـادث زوجـك، وكان يُخطّط لِقَتله. المُلّا لا يعـرف بأن الكلام الذي كان يقوله لأدهم سمعته وأنا خلف الباب قبل أن أدخل.

خَبَّطَت سَكينة على صدرِها بقوَّةٍ وقالَت: المُلّا؟!

قالَت: إي هو، كوني على حذر منه يا سَكينة، صرتُ أخافه بعد أن سمعت منه هذا الكَلام.

قالَت: هل اعتدى عليك؟

قالَت: أخذ مني ما يريد.

قالَت: يا قحبة لماذا؟!

قالَـت: اسـتغلّ حاجتـي ولا أعرف كيف استسـلمتُ لـه.. وبعد ذلـك صـار كلّما يريدني يتَّصـل بي وأذهب إليه، وأحيانـاً يأتي في الليل إلى بيتي الذي اشتراه لي.

قالَت: إذا كان يريدك اطلبي منه أن يتزوَّجك ليكون هذا بالحلال.

قالَت: طلبتُ منه، لكنَّه قال بأنَّه لا يستطيع لأنَّه متزوج أربع نساء حالياً.

قالَت: أربع نساء؟!

قالَت: إي، لكن الآن وبعد أن سمعتُ ما سمعت عن محاولته قتل سـلوان، سـأقطَع علاقتي به، صرتُ أخافه يا سَـكينة وأتوقَّع منه أي شيء يخطر أو لا يخطر ببالي.

بَدَت سَـكينة مُنهارة وهي لا تستطيع أن تتقدّم حتى بشكوى لأنَّها لا تملـك دليـلاً، ولولا أن السـائق قد هـرب وأن الحـادث مُقيَّدٌ ضِدَّ مجهول، لضغطَت عليه الشرطة بموجب الشكوى حتى يعترف.

عنـد ظهـيرة اليوم التالي عادت ابنَتا سَـكينة مِن المدرسـة وقالتا إن سـيارةً وقَفَت بجانبهما وهما في طريق العودة من المدرسـة، ونزل منها شخصٌ وأراد أن يعطيهما نقوداً، لكنَّهما هَرَبَتا حتى وصَلَتا البَيت.

هَبَـطَ قلب سَـكينة وضمَّت ابنَتَيها، وصارَت تأخذهما بنفسـها إلى المدرسة، وتُعيدهما.

عندما خيَّم الليل، تقلَّبَت سَـكينة في الفِـراش مُتعَبة وهي تنظر إلى ابنتَيهـا النائِمتَـين بجوارِها، مـدَّت يدها إلى الهاتف، وصـارت تُقلّب القنـوات في الانترنـت، وبغتة رأت المُلّا في إحـدى قنواتِه، ولا تدري لماذا تخيَّلَت بأنَّه صعلوك وهي تنظر إليه.

أخذت تُركِّز بدقَّة على وجهه، وتكتشـف عليه سِمات الحِقد، رغم أنَّـه يحـاول أن يخفيها من خلال بسـمةٍ، ولكنَّها بدت بسـمة مُصطَنَعة وليسـت حقيقيـة نابِعة مِـن القَلب، وخال لها بأن مثل هذا الشـخص لا يسـتطيع أن يبتسم بسـمة طبيعيَّة، لمقدار الغل الذي في قلبه، وبدت البسمة وهي تتأمَّلها، بسمة بؤس على وجهٍ انطفأت فيه نور الإنسان.

* * *

بُهِتَت مُديرة المَكتب عندما تقدَّمَت في الصباح إلى باب الجمعيَّة ووجَدَته مفتوحاً. توقَّفَت بها قدماها وهي تنظر إلى الباب المَفتوح. خَطَرَ لها إنَّ المُلّا قَد جاء باكِراً، لكنَّها استَبعَدَت الفكرة لأنَّه لم يسبق أن جاء إلى الجمعيَّة باكِراً، بل يجيء كعادتِه بعد التاسِعة صباحاً.

مَدَّت خطواتٍ وئيدة إلى الداخل، اتَّجَهَت إلى مكتبها ببطء وهي توزّع النظرات في أركان الجمعية التي يكتنفها الصمت، اقتعدت كرسيّها قليلاً، ثم ما لبثت أن نهضت، ومدَّت خطواتها صوب مكتبه، وقبل أن تصل الباب، رَمَقته مفتوحاً، فارتابَت في الأمر وتسمَّرت في مكانِها. بعد قليلٍ وهي تحدّج الباب المفتوح، اندفَعَت نبراتٌ وجِلة مِن حنجرتها: مُلّا.. مُلّا..

ثم كرّرَت وهي تُقاوم حالة الارتجاف التي دهمتها: مُلّا.. مُلّا..

ولم تسمع شيئاً، فأخذ قلبُها يخفق بقوَّة. كم تمنَّت فيما لو دخل أحدٌ بغتةً إلى الجمعيّة حتى تحتمي به وتدخل معه المكتب. ولبثت في مكانِها مُتردّدة بين أن تتقدَّم نحو المكتب، أو تتراجَع إلى الوراء نحو مكتبها. ولكنَّها بعد قليلٍ مدَّت خطواتها نحو الباب المفتوح، تقدَّمت منه، ومدَّت رأسها خِلسةً وألقت نظرة إلى مكتبه، فلم تجده، دسَّت جسدها إلى الداخِل، فتفاجأت به عارياً وهو مُعلَّقٌ مِن رقبته في السقف، وعليه آثار ضربٍ مُبرح.

اندَفَعَت مِنها صرخةً مدويَّةٌ وعادَت تهرول في الشارع بذعر.

عبد الباقي يوسف

روائي وأديب سوري
مواليد مدينة الحسكة – سورية 1964
من مؤلفاته:

في الروايـة:

1- برويـــن – دمشق 1997 الطبعة الثانية القاهرة 2021
2 – ديـــــن – دمشق 2004
3 – جسد وجســد – دمشق 2004
4 – روها ت – دمشق، بيروت 2006 الطبعة الثانية دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة 2021
5 – خلف الجدار – دمشق 2007
6 – إمام الحكمة – وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الكويت 2010 الطبعة الثانية القاهرة 2021
7 – الآخرون أيضاً – كركوك 2012 الطبعة الثانية دمشق 2019

8 – هولير حبيبتي – أربيل 2013 الطبعة الثانية القاهرة 2020
9 – هولير سدرة العشق – أربيل 2015
10 – سورين – القاهرة 2019
11 – سيامند وخجي – الطبعة الثالثة وزارة الثقافة العراقية بغداد 2021
12 – بلاد ليست كالبلاد – الطبعة الثانية– دار شلير قامشلي 2022
13 – أمريكا كاكا – القاهرة 2020 تُرجِمت إلى اللغة الانكليزية
14 – المُلحد – الطبعة الثالثة القاهرة 2020

في القصــة:

15 – سيمفونية الصمت – دمشــق 1989
16 – الحب في دائرة العبث – دمشق 1990
17 – طقوس الذكرى – دمشق 1992
18 – كتاب الحب والخطيئة – حلب 2004 الطبعة الثانية القاهرة 2021
19 – غيوم مـن الشرق – منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق 2006
20 – طريقـة للحياة – منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق 2007
21 – مدار اللسان – دار الكافي – الجزائر 2021

22 – سر الخرزة الزرقاء – وزارة الثقافة والسياحة والآثار العراقية– دار الثقافة والنشر الكردية– بغداد 2022

في الدراسات:

23 – عالم الكتابة القصصية للطفل – وزارة الثقافة والإعلام – سلسلة كتاب المجلة العربية– الرياض 2010

24 – حساسية الروائي وذائقة المتلقي – وزارة الثقافة والإعلام – سلسلة كتاب المجلة العربية– الرياض 2012

من الجوائز التي حصل عليها:

جائزة دبي الثقافية للرواية العربية سنة 2002 عن روايته / خلف الجدار/

جائزة منظمة كتاب بلاحدود الدولية سنة 2012 عن روايته / الآخرون أيضاً/

جائزة نادي الطائف الأدبي للقصة القصيرة في السعودية سنة 2004

جائزة نادي حائل الأدبي للقصة القصيرة في السعودية عن قصته / خورشيدة /